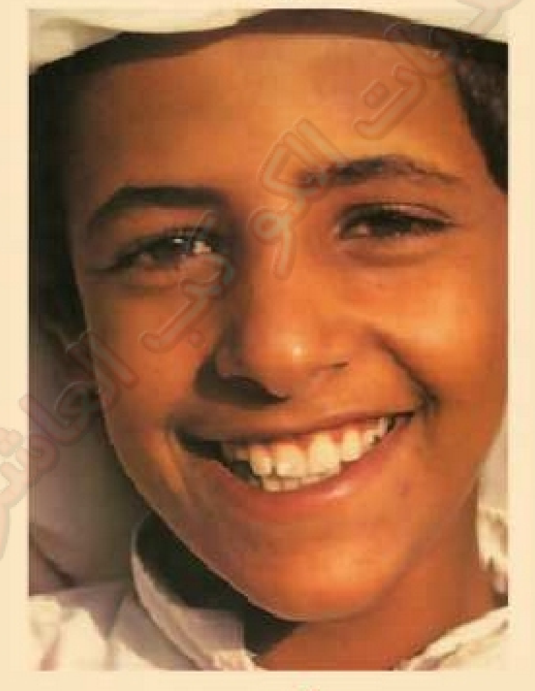
أحمد الواصل

سورة الرياض

رواية



الفارابي

أحمد الواصل

سورة الرياض

رواية

دار الفارابي

«السُّورَة. ج سوَر وسُوْر وسُوْرات: ما طال من البناء إلى جهة السماء وحسُن. (وتعني) المَنْزِلَة. يقال «له سورة في المجد» أي: المنزلة. [كما هي تعني] الفضل. يقال «له عليك سورة» أي: الفضل. [وتعني أيضاً] الشَّرَف والعلامة».

(المنجد، ط: 37، ص: 362)

تأمَّلْ

ستلمح فيها احتمالاً ومستقبلاً للنهار

واحداً.. واحداً

كُلَّما هَيَّا القَتْلُ والقَيْدُ أسطورَةً

فزَّ في شمعدان الطفولة جمر الصلاة..

انتظر،

أيها الفارس الرخو!،

هذي الوجوه الجميلة تعرفها

فانتظر

قاسم حدَّاد

تُفَّاحَةٌ تُصَلِّي على سِجَّادة رَمْل

1

إبراهيم

.. لم يكُنْ في السقف شجرة، فمن أين انطرح أمامي بغتةً كتُفّاحةٍ معلّقة هزّتها رياحٌ عابرة لهذه الصحراء، وهي تضيق بمصيرها بين السماء والأرض.

.. الثمار شحيحةٌ تلك النابتة تحملها السيقان النحيلة فوق الصحراء. نعم، نحيلةٌ وقصيرةٌ تلك السيقان كما أنها لا تكاد أن تنوء برفع وريقات خضْرَاء شهباء وسميكة عروقها تنبض بطيئةً بسوائل لزجَةٍ سيحفل بها ظمأ الماشية، لكنه واقف بجانبي ينتظر دوْرَه كتُفّاحةٍ خضراء ندية ولامعة أريد أن ألتقطها من سجادة الرمل.

.. أتخيّل نبضها براحتيّ حين لم يطْرَأ عليَّ زمُّ شفتيَّ صوبها لقضمها، بل انشغلت بغتة بحريق من كوب القهوة الذي حملته من النادل لأنتحّى صوب السكّر والحليب. انقل من جانبي بحذر لحظة أن بدّلْنا أمكنة وقوفنا لأنه سيلي دَوْري. رميْتُ كلمات قليلة ومبعثرة، لعل تمكُّني من سرعتها

جعلها تحْيل معنى سؤال فضولي بالطبع ولا شك. فقد كنتُ أشعر بوحشة المكان أقوى من غرابة الناس وتنوع الأجناس نساء ورجالاً بألوان جلودهم وملابسهم التي وضعتني في حيرة لا تجعلني أثق بمعرفتي الجيدة بأكثر زبائني المألوفين في المحل. هنا ليس كمثل محلنا في الشارع الطويل والمتعرّج في العُليّا، شارع الدشوش عند الباعة البنغال وشارع إبليس عند حملة اللحى والفتاوى، الذي أعرف جيراني فيه، ولا كمثل جناح مَعْرض في مجمع أسواق موسمية يشغلني الزحام عن حديث عابر مع أي جار.. بل هنا عرض خاص لبضائع عديدة وعادية بأسعار نوهم أنها معتدلة ومخفضة أيضاً. كان لا بد من التخلّص منها قبل حلول موسم آخر يطلب سواها.

.. وربما كان هروبي من تلك الوحشة في يومي الأول لم يكن يأمل بهكذا ألفة عميقة معه فقد رحْتُ بعيداً في عينيه الودودتَيْن، وأصابع كفّيه الدقيقة الرسم، لكنها طويلة ورقيقة تفضي مصافحتهما أو لمسهما العابر في حالة تخصُّني كأنما تدفع جسدي نحوه، فأحاول مراراً ألا أجعله يمضي متهوراً صوب تركي حيث لحظت اسمه من بطاقته المعلّقة بجيبه الأمامي، ولكي لا أجعله يشعر بتلك الخضّات الدافئة، كلما رأيتُه أختلق صدفة لأجلس معه وقت الفطور حين يأخذ قهوته حاملاً جريدته. إذ لم أعرض عليه الغداء سوياً غير محاولة

مخففة لأتخفَّفَ من تلك الحرائق التي تنجزها أشعة تنطلق من هالة جسده الأخضر صوب مسامي واحدة تلو الأخرى وتنغرس طفيفاً في الفراغات بين كل واحدة وأخرى، لكنها تلْتَحُّ عندما أعود في المساء ختاماً ليوم مزحوم إلى بيتنا، فأستلقي على كنبتي مسترخياً ومستمهلاً ذلك النوم، فأطلق في فضاء الغرفة عيني اللتين تجهدان قليلاً بإطباق متكرِّر لجفنيَّ.

علَّني أستعيد صورته كلها بذلك الجسد الأخضر الذي تكاد تنفلت ذراعاي نحوه، وبتلك العينين السخيَّتَيْن بخجَل يداري خوفاً وقلقاً شفيفاً، ليوحي بأن تجربة ذراعين سابقين أخفقا تماماً بجعلهما تنعمان بالإغماض في حضن صاحبهما.

.. فأرمق السقف كما لو كنت بملء صدري الذي أفترشه بأصابعي مُمرِّراً إياها أتلمسه كسجَّادة تنبر شعيراتها التي ستفز بغتة لانطراح تفاحة خضراء، فلم أستطع استعادة صورته كاملة؛ تبقت لي حركته ونشاطه في المشية المستقيمة وتبقت لي إمالات خجلة ورقته في كفيه لحظة ما يتكلَّم أو يعزِّز وصف أمر ما.

.. لم أرد أن أستعجل أي شيء معه على أنني أعرف أنه سيسافر خلال أيام بعد عروضنا في المستشفى حيث ستنتهي بعد يومين، لكن أغرفُني حاولت يوم زممْتُ شفتيَّ لأتنفس أصابعه الخضراء بهما وأطمئنه ببساطة من قلقه حول مستقبله حين أخذ لحم شفتيه يتورَّد في حديثه وزميلته سميرة. فهو

كان جالساً وهي واقفة ناحية ركن من صالة النادي الذي يفضل الجلوس فيه وقت فطوره.

.. كانت عيناه تصفوان في لونهما ولحم جسده يتورَّد، فعلاً، من بعد ذلك الانقباض الذي حدّ تفاصيل وجهه وركبتيه بسحنة ضيق من تلك التنبيهات التي تتتالى يطلقها جواله لتُعْلِنَ وصولَ رسائل أراه بات يتجاهلها الآن بثقة منحت ضيقه طريقاً ليتبدَّد فيه هم رؤية تلك الرسائل التي لم تعد توافيه.. لتثبت لي عيناه شعوراً يُنبيني بأن توأمة روحية تجعلنا في عداد غبطة لطيور تنجو من شَرَكٍ.

.. إنه يظل في أحلامي وشهواتي تفاحتي الخضراء التي تهيأت لتنفصل من غصنها لأنها تضيق بمصيرها بين السماء والأرض. إنما تعرف أنها ستسقط على راحة تختارها غير السماء والأرض.

2

تركي

.. منذ أيام، أشعر بانزياح بعض أحمال تتزحْلَقُ وراء بعْضِها كأنما تترتَّبُ في طابور يذكّرني بأيام المدرسة عندما نلوّح بغُصْن شجرة لأسبوعها أو نصفّق للإذاعة الصباحية أو نزعق دوماً بحناجر الطفولة المغسولة بالحليب والتثاؤب نشيدَنا الوطني.

.. أشعر أنني في صباح هذه الأيام التي تمنحني ألواناً بعد أن كنت أمنحها ألواني، بعض لذة تتخفّى في داخلي أتحسَّسُها هذا الصباح تحت الماء الذي يتناثر بين جسدي وبين الجدار. ألتفت بعد أن تموّج وتقاطر شلاّل الماء على فمي منهمراً صوب المرآة لأبحث عن لون أخضر لتلك التفاحة التي دأب ابراهيم يشبّهُني بها حين اكتشفت اسمي في جواله: تفاحتي الخضراء، وسألته ممَّ؟. فضحك وكان يتطلّع الى سقف أي مكان نكون فيه ليطلق ضحكات متلاحقة كما

في الخشب البني مستعاراً لسقف صالة نادي المستشفى أو ذلك القماش المُخْمَليّ فوق رأسه في السيارة.

.. لا أعرف أن كثيراً من الأمور تتسارع مثل هذا الماء المنهمر بكثرة وسرعة. إنه منعش بحق أكثر من إغراء دعاية أي صابون. نعم، منعش مثلما حياة هذه المدينة الجديدة عليَّ، فرائحة الجبن تفوح من الطرقات ورائحة السخانات تملأ المنور. إنها روائح غريبة تغزو بعضها بعضاً تتوقف واحدة مميزة تلك التي تأتي من شقة الشاب الهنغاري الذي يدرس الغناء الأوبرالي ويصْدَح مجلجلاً بصوته منذ الصبيحة عندما يبعث وريقة اعتذار خضْرَاءَ صغيرةٍ من تحت الباب تحمل رائحة عشب المارين الذي كاد أن يضعفني صوبه يوم عرض أن يكون موديل الرسم لي أنّى أشاء وكيف أشاء، على أية حال لم يكن شعره البرتقالي يغريني ولا الشعيرات الصغيرة التي تحوط حلمته أو حتى الشعيرات الأكثف حول تلك الحمامة الصغيرة التي يتغطّى رأسها المنحني بزائدة لحمية أظن أننا نفقدها.. ، ولا أذكر كيف لا يكون لتلك الحمامة جفن كما للعين ليحميها من روائح السراويل التي تمتلىء بالمغاسيل الكيماوية والمياه المحلّاة بالمعدن. لطالما أشغلتنا تلك الرأس المدببة بالحك والفرك بيننا وبينها كثافة قماش الثوب وسواها في صحوننا وفي منامنا، أما هم لا حاجة لذلك الحك والفرك.

.. كيف تخلّى عنها ذلك البدوي إبراهيم، طريد الصحارى، وهو شَيْخٌ أصرُّ على مقاومة عُقْم خلله مع النساء كلهن، فقد ضحّى بها لذلك الرب الغيور؟.

.. قومٌ يخلِقُون بأفخاذهم، وقومٌ تقْسِمُ آباتُهم بالقمَر. لماذا لم يطلبها فادي الحياة مصلوباً ومطعوناً؟.

.. أشعر مرة بالوخز في كتفي من شريط حلم مريح أنساه كلما أنهض صباحاً، ومرات أكتشف بللاً حاراً و لزجاً يتأكد لي كلما ضممت تفاحتيّ فخذي لألم الشَّرْشف بينهما وأدرك أنني في نومي لم أبعد كفي من استناد رأسي عليهما كما اعتدت.

.. كلما نهضت صباحاً أشعر أن صورة إبراهيم تفد إلي كاملة بزرقة قوية تعانق تسرب شعاعة شمس طافرة من ارتخاء خشبة المكيف السفلى، فأقلب رسالة واردة منه ناعمة:

«مريت اليوم آخذ قهوة،

لقيت واحد جالس بالمكتب!»

.. أبتسم وأقْلِب جسدي نحو الجانب الأيمن فأرى ورقتين نائمتين، هما اللتان مددهما لي المسيو ميرو وكانتا سبب وجودي في هذه المدينة التي مرت بها حنجرة إيف مونتان وخوليو إجليسياس أو ريشة بيكاسو وموديلياني كما احتضنت حناجر وريشاً من الشوارع والملاجىء إديث بياف وجان جنيه.. ، ربما استسلمَتْ هاتان الورقتان الخضراوان

لنوم عميق كأنما تعرفان بسفر طويل لنا لا تغيب عنه الألوان والفرشاة ربما الأخضر كان أحدها كما يفضل إبراهيم وأعتقد أنني أحببته بكامل مُنى جسدي وغوث روحي غير ما كان ينقص تلك الحالة التي عشتها وناصر. إنما مضت..، وهذا ما يجعلني أتخيل كل أوراقي خضراء. إنما بلا تفاحة حتى أعود إلى الرياض.

جُمْلَةُ طفَشٍ فِي الرِّياض

1

تركي

.. المَلَلُ واليأسُ أحَدُ صِيَغ القَلَق.

.. بدَت الرياض لوحةً بلا قرار. الناس فيها بعض رشقات مُلوّن سِئم أدواته، وهذا ما أحبطني منذ سنوات عن مزاولة هواية لم تعمد إلى كشف موهبة تعشق إعادة تشكيل هذه الحياة عبر اللون وإضاءاته.

.. الجو جميل يحمل نسمات برد لا تقرص بل تهيج فجأة بعد سكون، فالسماء مَلْغُومَة بفضاء قطني. إذ بمجرد أن تطلع توحي بالمطر كله يوشك أن يوقظ كل شيء أنامَهُ الأيام أو الشهور أو السنوات التي سجنته مثل البذور التي في الرأس عن التقدم تحكمها أشجار خاوية من التخلف، فالأزهار نوع واحد وألوان باهتة، الطيور نوع واحد وأحجام تفتقر إلى ريش ملون أو طول في المناقير سوى جارح، وآخر غض معد لنيل الأوّل..!

.. متابعتي لجريدة الحياة منذ استئنافها أثناء حرب الخليج الثانية، أحد أسبابها قول أحد الأصدقاء إن فقدانها في أي يوم من أيام الأسبوع يسبب: «خللاً..» لا ينقضي سوى برؤية نسخها مزاحمة الجرائد المحلية التي لا يطول وقت تصفحها مروراً لا أكثر لأثبت في نفسي أن الملاحق الثقافية المعنية بالتشكيل لا تزيد ولا تنقص في اهتماماتها سوى بالرسم الواقعي الذي يتناول باباً خشبياً قديماً أو صحراء بقافلة ومرات بعازف ربابة نارُ موقده مشبوبة، وإن عرضت بعض الرسومات الأخرى دائماً ما يختار المحررون تلك الرسومات التي لا تحمل صور أنفاس بشر لئلا تثير رسمة أي امرأة. وجهها أو جسدها حفيظة قراء غيورين على أخلاق المجتمع الذي يتسابق مثل غيره إلى شراء المجلات العربية والخليجية التي تحفل من غلافها بفتاة مُشْبقة أو توحي بما يساعد الخيال في الخلوات، حتى غلافها الأخير الحامل لإعلان عن أحد أنواع العطور النسائية أو مستحضرات التجميل، ولا تغيب المرأة كموديل فيها..!

.. يوماً، قرأت في صفحة القراء:

عبث وغيرة.. وقصور في الفطرة

يا جريدة الموت ـ لا أحياكم الله ـ

لم تنشرون مثل هذه الصور الفاتنة المثيرة للشهوات؟

أما تغارون على أعراضكم؟.. أما بقيت فيكم نخوة ولا غيرة؟

تبلد الإحساس عندكم؟

قبحكم الله وقبح جريدتكم القذرة (...) لم تحرصون - خذلكم الله - على نشر العهر والفساد والإثارة، لا تفتحوا باب تبرج.

يا جريدة الموت كفاكم عبثاً واستهتاراً.

كيف تنشرون مثل هذه الصور؟

هل تريدون منا مقاطعة جريدتكم؟

آمل أن تفصحوا عن ذلك.

محذِّر ومنذر

١٤٢٣/٨/٢٧ للهجرة

المحرر:

.. نظرنا ملياً في الصورة التي يصب عليها القارىء الكثير الصفات (كلها اسم فاعل) جام غضبه. فلم نر، ربما عن قصور في فطرتنا، ما يدعو إلى إثارة الشهوات والغيرة على العرض، ناهيك بالعُرْي والقذارة والعبث والاستهتار. فالصورة لا تعدو وجهاً صبوحاً ومبتسماً، على شاكلة الوجوه التي تستقبل الناظر الى مشاهد الجموع والناس في الطرقات والساحات والأسواق.

.. فإذا جارينا القارىء الكثير الأسماء على نعوته لاقتضى

الأمر إلغاء الصحف وإطفاء الشاشات الصغيرة، وقطع البث الإذاعي. فما بالك بالصوت إذا تكلمت هذه السيدة أو تكلمت مثيلاتها؟، ولاقتضى الأمر النهي عن السفر، وعن التجارة وتبادل السلع، وقطع الطرق، والحؤول بين «القبائل» وبين التعارف. فإذا كان القارىء الكثير الأسماء يدعو إلى هذا، وربما إلى غيره، فلماذا يقتصر على التحذير والنذير والنصح؟. فليخرج.. شاهراً السيف!.

* * *

.. وجه (ميرفت أمين) عاهر..!، فاسد..!، مثير..!، ويفتح باب التبرج.!

.. ماذا عن دعاة اللحى والشمع والمسابح والمصاحف؟ ماذا عن كاسيتاتهم وحلقاتهم ومخيماتهم؟

.. «أبد دعارة دينية..» كما قال أبو خالد.

.. مصالح بائسة تتسمى تحت مذكرات الرز والصفيحة وتقويم الحاكم بنشر فساده وتعميمه من أجل إفزاع المجتمع وتوتيره وجعله قطيعاً احتاج من قرع جرس غنمة فيهم لمصلحة ذئب لا يقوى حتى على ركلة غنمة توجعه وتفلت..

.. أجلس في ثاني مقهى خلال أقل من ساعة بعد أن أذنت لنفسي الخروج من الدوام، فالجو فاتن لمزاجي الناري. سماء تكنز قطنها الذي سيسيل كأنما تغفل عن فتق شهاب يقرع إنذار السقوط..

.. دخلت إلى المقهى وطلبت قهوة أميركية سوداء، وحلوى السينمون رول، وسلّمت على رجل ثلاثيني كان يلتهم طبقه، ممتلىء الفم كأنما تعجن زواياه تلك الحلوى. جلست وبدأت إكمال تصفح الجريدة. . جاء شاب سوري قصير يلبس جينزاً وتي شيرتاً عليه جاكيت جلدي أسود يعقد شعره ذيل حصان بنّي لامع، يرافقه شاب فلبيني طويل على غير عادة بلباس أنيق. قميصٌ طويل الأكمام وبنطلون كحلي ثني المكواة باقٍ عليه يحمل دوسيه جلسا يتكلمان وبين تصفُّح وآخر تصلني كلمة منهما: «موكا لاتيه. .»، مؤكداً لا بدَّ، نذهب سوياً. .، نتفق عليه.. ربما يتباحثان تجديدَ خدمة مشروبات المقهى. نهض الشاب الثلاثيني، وخرج، أحضر النادل الفلبيني قهوتي وطبق السينمون رول ناسياً الحليب، لم يشاركني تقدير حومة الكبد لكثرة سكر الحلوى مع ثقل القهوة الحامض، لم أبادره بتذكير، فالْتَهيْت بأكل الحلوى وتصفُّح الجريدة:

«نعلن نحن أبناء الكويت والأعضاء في
جمعية الطيارين ومهندسي الطيران الكويتية
وقوفنا بين صفوف الشعب الكويتي الأبي..»

- «Sorry sir».

- «هاه. .»

مقدِّماً الحليب بلطف وعناية ملوم.

ـ «I forgot the milk!»

رددت عليه: «Never-mind, Thanks».

.. انشغلت بوضع الحليب على القهوة قبل أن تبرد وارتشفت منها، وأتابع ذلك البيان الذي تعلن فيه (جمعية الطيارين ومهندسي الطيران الكويتية) الولاء لأمير الدولة وولي العهد ونائبه عن: «كامل رَفْضِنا وشديد استنكارنا لما جاء به رئيس النظام العراقي مؤخراً من مهزلة في خطابه التحريضي المليء بسموم المراوغة والمبالغات والافتراءات والتهديدات المبطنة..».

.. بعد إحدى عشرة سنة على غزو الكويت في الثاني من آب 1990. يعتذر صدام، وأنا من يعتذر لي..؟.. هل أنا بحاجة إلى اعتذار..؟.. أريد تعويضاً لأعيد اكتشاف ما تبقَّى من موهبتي التي فقدتها أو اكتشفتها بعد تلك الأزمة، لم تستطع نشاطات المدرسة سوى بترحُّمي عليها ولا عزاء من أحد.

.. أين ثمارها؟..

.. الكويتيون يرفضون ما يؤذي أرضهم لأنه يؤذيهم بينما كثير من السعوديين أو المتجنِّسين وقت الأزمة هرَّبوا أموالهم خارج البلد مخافة تحقق إشاعة تمكُّن صدَّام من دخول واحتلال البلد خلال ساعات بعد الكويت مثلما هُرِّب الذهب لليهود الذين خرجوا من الجزيرة العربية بعد نكبة ـ 1948؛

لأنها أوثقت قيام دولة إسرائيل التي ستنتصر عدة مرات قادمة أهمها باحتلال القدس كاملة ـ 1967، وتشيع إلى الآن البكائيات والحزن عليها. إنها هزيمة لفحولة العرب لا كرامتهم!.

.. الأزمة حصلت في وقت طفولتي ولم أكن مستوعباً شيئاً كثيراً عن دوافع الحرب لأننا درسنا غزوات الرسول لنشر الدعوة والخلاص للبشرية!.

.. أيُّ دَعْوَةٍ كَانَ سينشرها صدام، فأباح المُفْتون قتاله..!؟.

.. في منهج دراستنا تعتبر الغزوات والفتوحات منجزات حضارية أسبابها مرعية من السماء حتى وصل الأمر إلى ما بعد سقوط الأندلس، كان الصمت والمراوغات لواضعي المنهج، فلن يقولوا حكمنا غير العَرب. العثمانيون.. الجنس الطوراني الذي حكمنا بالفرَمانات والحَرَمْلك..

.. الكلام المُبْهم عن موقفنا تجاه فلسطين عربية وأخرى توراتية..، فلا يسبقه حديث عن الحربين العالميتين على أن ما قبل انفجار تلك الأزمة لم نعرف الكثير عن حربٍ بين العراق وإيران..؟!.

.. امتلأت كتب التاريخ بالمؤامرات حول العرب والمسلمين.

.. المعاهدات والاتفاقات من بيعة السقيفة ومأساة كربلاء

إلى انهيار الآستانة ومؤتمر بال وسايكس ـ بيكو.. ألم تحتج إلى تجديد بعد قرْن..؟!.

.. حتى الحديث عن تاريخ الرياض.. نزاعات مشروطة بين إخوة على تركة سائبة ثم فَتْح!.

.. الخرافة الشعبية عن جيش الأربعين رجلاً. وبعض يقول: «ستين رجلاً». منَّ علينا مدرّس التاريخ في عدم إعادة الحكاية التي لم يكتب عنها في كتاب المدرسة، إذا لم نستمع، فلن يكرر. إذ تحدَّث عن تفاصيل تعدد رواياتها الشفوية عن رجال اختبأوا بلباس نساء ومقاتل مات لمِعْيَارة(*) كان يقولها..!، وتجيء الأخبار من رواة فلتوا من السيف عن رجال تخفَّوا بهيئة مسافرين حول المَصْمك بخيانة امرأة. إنها الحرب لا بد من حيلة.

.. صُفَّارات الإنذار وفزعات والدتي بين تجمعنا في مجلس النساء، الغرفة القريبة من الصالة، والتي تكون مكاناً لعَلَّاق عباءة أمي وشنطها إذا ما احتاج ذلك أن تصعد غرفتها العلوية، وأيضاً مُصَلَّاها وضيافة الزائرات من الجارات أو أخواتها ووالدتها، وصارت هي النواة لجلوسنا. بطاطين ومخدَّات في زاوية، ومذياع Sharp البنّي الذي يسمع منه والدي الإنذارات. ما إن انتهى الخطر لنفترق في البيت أو

(*) معيارة: كلمة هزؤ.

بعض الأخبار إذاعتي: لندن ومونت كارلو. إذ عادة ما تعلنان تفاصيل أخبار تصير حولنا، ولا تعلنها إذاعتنا المحلّية مثلما حدث يوم الغزو في ذلك الخميس الأسود كنا نتابع مسلسلاً عراقياً.. يعرض في قناتنا. ساعتها اتصل زوج خالتي الذي يعمل بفرع مكتب صحيفة كويتية في الرياض جاءه النبأ، وأخبرنا بينما لم يذعْ الخبر في قناتنا حتى قيامة اليوم الثالث..!.

.. وصلت العائلة ذات صلة القُرْبَى بنا من الكويت الآتية من ألمانيا بعد أيام من الغزو بدعوة من والدي حيث قرابة العمومة؛ لتعيش معنا في المنزل حتى انتقالهم إلى منزل جدي في عنيزة مؤقتاً حيثما تصل إليه الأحداث من نتائج تحدّد المصير لجميع الكويتيين.

.. لم يكن لجوء للكويتيين ما منع السعوديين من الهرب خارج البلاد ونزوح كثير من العائلات إلى مساقط رأس جدودهم حيث القرى المتروكة لسيوف الصحارى ومزاج السموم الصيفية.

.. لماذا بقينا في الرياض..؟

.. والدي تركنا أياماً كثيرة وراح إلى أهله مع بعض إخْوَتي إلى عنيزة. بينما أمي المولودة في الرياض، حيث ولدنا بها أيضاً، وبها تربَّتْ ودرَسَتْ وتزوَّجَتْ.

...: «وشولُهْ نَطْلَعْ ما سوِّينا شَيّ لْصدّام..؟!». حين

رفضت الذهاب إلى عنيزة على أن أمها وأختين لها هناك. رفضت وفضَّلت أن تبقى.. كيف نترك مدينتنا التي ولدنا بها وعشنا فيها..؟.

.. بعض خالاتي سافرن إلى مكة مع أزواجهن، وأخرى الى القاهرة!.. بينما والدا أبي وإخوته وزوجاتهم انحشروا في منزل ملحق بمزرعة يملكها قريب عن طريق الرضاع إلى جدي لأنَّ بيته في عنيزة يسكنه لاجئون من الكويت.

.. شعَّت عند أمهم حالة في طقوس النوافل وبخور الآيات ليعود ابنها من الأسر العراقي والآخر من دراسته في أميركا.

.. لم أستوعب هذا الذي حدث. كثيرون نزحوا إلى قُراهم وهِجَرِهم. ألآنّ المدينة لا تشكل لهم ذرة حياة في أنفسهم..؟.

.. ما إن فزَّ ناعق قروي أرجعهم إلى لوائها..!..

.. إذن، ماذا كان موقف أبنائهم حيال أمر الرجوع..؟

.. أمي بقيت في الرياض ونحن باقون معها. بينما بعض جيراننا هربوا إلى قرى أو مدن بعيدة لم تكن هدفاً لصدَّام حينها!.. والذي يثير هزءاً داخلنا هو أن أكثر أقاربنا رحلوا إلى الشمال صوب القصيم. أليسوا يَقْربون من الخطر أم أن دافعاً غريزياً يختار لهم مكان قبورهم حيث ولدوا..؟.

.. الرياض تعجُّ بقليل من أهلها، والعمالة الوافدة من

الباكستانية، البنغالية والهندية تتسابق إلى المخابيء مثل فئران مستودعات القمح الكثيرة في البلد.

.. سيارات كويتية تحمل ملصقات: «الكويت لنا».. «الكويت حرة».. «راجعين..» سيارات الجيش الأميركي التي تضاءل ظهورها العلني، قيل: لاعتراض بعض المتدينين كيف لـ «الكافرين..» أن يدافعوا عن أراضينا..؟!.

.. امتلأت أيادي الناس بمنشورات جدلية معمورة بالفتنة القرآنية وغمامات السقيفة الإسلامية سرعان ما تحوَّلت إلى مصوَّرات ورقية تُتناقَل خفية بينهم عمَّا دار بين سفير وداعية. ها هي سجالات المدينة المحتقنة بامتناع علمانية تحت السعودة ونيو ـ وهابية العلمانية ـ كما قالت الصحافية الأسترالية ـ أول خِطَب تتحوَّل إلى أشرطة، كسيوف خشبية مصوَّبة تجاه الحكومة تتَّهِمُها بالفساد والإهمال..

.. النساء طلعْنَ وقُدْنَ السيارات عند شارع الملك عبدالعزيز، ولم يرينه. إذ تلقاهنَّ رجال الأمن، الهيئة وفتوى من ابن باز مكفِّر من قال بكروية الأرض في السبعينات، تُنهي الأمر بالشمع الأحمر اتهام بعضهن بالشيوعية، وأُخريات فاسقات لأنهن تربين خارج البلاد..

.. حسرة طويلة الزفير لإحدى جاراتنا على ما حصل ولما ينجح. لم تيأس والدتي وقالت: «لو ما هو بوقتنا، بوقت بناتنا..». الغريب، أن جارةً، وهي أميركية زوجة

لسعودي، اتخذت موقفاً لم يعجب الكثير من النساء: «هذا بلد محافز(*) هذا ما يجوز!.». بينما الصحفية الأسترالية جيرالدا، التي أحضرتها إحدى جارات والدتي، كانت ضد تفكير الأميركية، ورأت الموضوع بشكل اتفق مع رأي السيدات الباقيات أن الأمر لم يحن زمنه المناسب؛ لأن البلد في حالة طوارئ!.

.. (الطوارئ) لو فقدت همزتها ظهر أصلها اليائي، فستصبح كلمة نستخدمها في المحكية للتعجب: «وش الطاري وأنتم ما عندكم بطاقات مدنية..؟!». قالتها امرأة كويتية حاضرة المجلس، وعلقت أخرى من السعوديات: «شافوكن تسوقن..، وشافوا الأميركيات، قالن وش معنى حنا للحين ما سقنا..؟!».

.. رجمن بالفتوى. كل شيء يوقف أو يعلق بالفتوى، تلك العادة المأخوذة من زمن العثمانيين!.

.. يمر الزمن ولا يسقن، لكن تصدق نبوءة لم تقصدها تلك الكويتية عن المطالبة بالبطاقات الشخصية للنساء.

... المعلمات يتظاهرن عند الرئاسة التي يديرها رجال ملتحون لشؤون النساء ويحرقنّ فتيات مدرسة في مكة لأن الهيئة منعت خروجهن سافرات. تركت الجثث تتلذذ النيران في تفحيمها..!.

(*) أي: محافظ.

.. تدمج الرئاسة أخيراً مع وزارة المعارف وتنتشر النكات عبر الجوالات:

«قرر وزير المعارف الدوام
مرة بالتنورة، ومرة بالثوب..».

.. أين شأن الرجال التدخل في شؤون نسائية أو منع مشاركتها معهم..؟.

.. إذا انفجرت أمور اجتماعية متقدمة على سابقتها تظهر محاولة إخمادها، لكن تتداعى أسباب أمور جديدة يختمها الزمن، فيرضى عليها، وينتاب كثيرين الخجل من انتهاك كرامة ذكورية وضعت في غير مكانها..!.

.. إن النساء في بلادي بركان. يتهيبون تلظّيه. إنما يحبطونه بالقرارات والفتاوى.

.. ماذا لو انفجر هذا البركان، وأعاد كشح الجلود المهترئة والعقول المتيبسة، والأفكار المتكلسة..؟.

.. هل هذا البركان نعمة لما سيأتي..؟.

.. إنه لبياس معقوف بالزبيريات والمسابيح(*)؟.

.. لا يدري أحد.

* * *

(*) الزبيرية: نعال مصنوعة من الجلد في مدينة الزبير أما المسابيح جمع سبحة أو مسبحة.

.. ذلك البيان الكويتي إزاء تأييد دول لقرار هيئة الأمم المتحدة لضرب العراق، بل لضرب الأسطورة ونهر الحضارة الذي ما عاد يحمل نفسه، غذته أصقاع الجزيرة العربية بسمومها، الفراديس المنقوصة وأحلام التيه. شعوب تبتاع النسيان بالهجرات وتمنح ذاكرات جديدة إن كتبتها قلوب النصر أو أقواسه. أبراجه ومسلاته. أعمدته وأحجاره.

2

.. ساعات تكاد لا تفصل الجو بين البارحة بغيوم واليوم بصحوه. الشمس تطلع بعد اختفائها مثل أي شخص التأم على فعلة أخلاقها شريعة فخذيه ثم عاد يماسح راحتي يديه بين الحوقلة وشعور الخشوع. قناع لقناع. الحقيقة حمل كاذب كل عصر.

.. ربما أنني تأخرت عن العمل الطويل دوامه. مشرفنا الطويل كزرافة يستبد ويصدر التنبيهات كأنما هي أوامر لا عصيان لها، وطبع الطاعة أو الانضباط عندي يتصاعد بالتجاوب وربما بالمسكنة المقنعة حتى إشارات تفلت منه عندما يوجه الخطاب إلى الموظفات..، وتصدر طريقة تعامل تفرق بالتودد لهن من أجل كسب رضا إحداهن.

: «إحنا في شغل، بعدين أكثرنا متزوجات، وش يبي..؟!» تقولها عائشة. تبتسم من عينيها خلف النقاب وتنظر إلي بعاطفة لا أفسرها حيث اهتمامي بابنها ذي الثلاث ربيعات خالد حين يحضر والده يوم الأربعاء ليأخذها من العمل وعزة من بين الموظفات الأخريات الخريجة الجامعية من التربية غير المبالية بالمحاولات المتملقة من بعض الشباب

الآخرين، إنما تستلطفها منهم، بينما نجلاء العملية جداً والمتجهمة من عينيها خلف النقاب وصوتها الأجش الوحيدة سمراء البشرة، وذات الوجه المليء بالبثور المتقيحة كما قالت لي زميلتي الفلبينية تريزا. إذ تشاهدهن كاشفات وقت الصلاة في غرفة الاستراحة..

.. الشباب الموظفون هنا، أكثرهم من فئات اجتماعية بسيطة وساذجة ممن جاء أهاليهم من القرى وتوطنوا الجهات الجنوبية من أحياء الرياض في ظهرة البديعة. سدير وضواحيها يعودون، وثمة كثير من بدو الشمال يتخفون تحت أسماء أفخاذ قبائلهم لئلا يدرك سبب تعيينهم السريع وكثرتهم حيث لهم أقارب في مكتب التوظيف أو عبر علاقات مصالح..!.

.. عشت حالة اغتراب أو الشعور بالوحدة لولا الفكاك منها أيام الجامعة مع طلبة الكلية جميعهم من قرى المنطقة الشرقية أو الجنوب من المناطق الجبلية، وكثيرون من بوادي الشمال الشرقي.. يشكلون جماعات أشبه بالغيتوات بين الكلية والسكن، ومن يماثلهم من مناطقهم من أهل الرياض بالنسبة لهم الكنز المدفون أو الأسوار العالية التي يحاولون قفزها أو الاصطدام على أطرافها وزواياها حتى تقرر الظروف بعد تخرجهم بالتوظف فيها، وإكمال حالة الانعزال مكونة تجمعات أخرى، إن تغير أعضاؤها لا تتغير أوضاعها على هامش المدينة تشكيل يدور في فلك صغير من مجرّتها.

3

.. في المستشفى كولاج بشري. من أوروبي، آسيوي، أميركي وأفريقي، لكن ليس له هوية هذه اللوحة كأن لم ينو أحد رسمها ولم يطق أحد البقاء لمشاهدتها.

.. تحمل هذه اللوحة صفات وأشكالاً من أهالي قرى جبال الجنوب إلى بعض بادية الشمال الشرقي التي نالت تابعيات سعودية بعد حرب الخليج الثانية، ما تجزأ وجود العوائل بين الكويت والسعودية، لكن بلدهم هو حيث يكسبون مثلما حصل لجدي فترة تجنيس ساكني الكويت، كان هناك ولا بد من رجوعه إلى القصيم، وبعض أخواله جلسوا في الكويت، فنالوا الجنسية. أما هو، فعاد ليستقر في الرياض بعائلته وصارت الكويت أرض الزيارات الدائمة. تشد له تاريخ شبابه وتطلعاته بين البصرة وشيراز ذكرى رجال يعرفهم ويتوق إليهم.

.. التاريخ والجغرافيا منخلتان تديرهما هبات العواصف الرملية الضائعة الاتجاه، وكذا هجرات الشعوب مرات دائرية ومرة نصفها، أو خطأً مستقيماً لا تعرف بدايته ولا يمضي إلى هدفه..

.. تنتهي الجبال بقممها تلالاً وهضاباً. تنتهي الرمال بأطرافها أنهاراً وبحاراً. الناس هكذا تكون بمستويات التفكير والأخلاق، وتظهر السمات بتعاملها مع أمور الحياة من تشدد وليونة. انفتاح وانغلاق. تطلع وانكماش. تجدد وتخلف. بطء وسرعة.

.. في هذه اللوحة الصغيرة داخل وسط عملي في المستشفى. لا أعرف. هل أنا جزء بسيط منها أم خارجها أعيى على الثبات فيها..؟.

.. تعودت على التعامل الواضح مع نفسي من تربيتي وجعلني هذا أعزز من عفويتي التي تظهر ببساطة أخلاقي وثقافتي التي يتكامل نسيجها في البيت. هذا ما يريح تعاملي مع مرؤوسي والموظفات السعوديات منها والأجنبيات، لكنه ما يعطي تفسيراً بـ : «الاستعباط واللكاعة.» مثل ما يقول محمد عنّي أمام بعض الزملاء في Coffee-room ساعة الفطور وقت ما يهزأ بالزملاء السودانيين في القسم لدينا.

* * *

.. سواد وصفرة. بياض واحمرار أشباه الناس بشراتهم وجلودهم. ملابسهم وأنواع شعورهم. ألوان المباني وتصاميمها. الأشجار المهذبة والأشتال الكثيرة المزينة لأطراف الحدائق من الزهور. تنقض في داخلي تلك الموهبة..

.. لا.. لم تكن بل هي بضع أوراق في دفتر انتفخت من بللها بالألوان المائية، فلا أحسن رسم الخطوط، ولا الملامح الحادة لأنني أتذكر النحت في الخطوط كأن ليس معي إزميل ولا فرشاة لون. أتُرى لأنني شمالي المنشأ..؟.

..قيل إن شعوب الشمال شغوفة باللون لذا، فهي رومانسية. بينما شعوب الجنوب ابنة الطبيعة حادة ودقيقة، فهي تفضل النحت. لعله الشاهد السري والممتنع الذي لم يبتدعه اليمانيون ليؤكدوا نسباً يرجع لهم في وجوه سومر ونحوت كنعان أو أن عرش المذاهب يأبى أي شرف لأجداد تشفعوا بأوثان لم يمح الغبار دهشتها مذ رأت ساقَيّ ملكة سبأ.

.. عندي بعض رسومات لموديلات فساتين خالاتي في صغري أو أمي، وكثير من الأوراق المليئة بالألوان المرشوقة لا أكثر.. على أن الألوان الحارة والدافئة بدرجاتها وأنواعها طاغية على كل ما أختاره ماذا لو كنت خطاطاً..؟. لو كنت في حلمي وليتسع ذلك الحلم. عندما أوازن مفاضلة واعتناء بالفروق بين ريش التلوين والخط والتصوير، بل حتى أذكر أن إحدى حالات تثير ذلك الحلم ونموه حين ألغوا مادة التربية الفنية، الرسم والتشكيل من منهاج الثانوية، وبدل إبقاء تعويضنا بجمعية الفنون الجميلة ضمن النشاط غير المنهجي

حولت ـ بقدرة غريبة ـ إلى جمعية التوعية الإسلامية في المسرح المقام خلف مكتب مدير المدرسة.

.. أليست تضارع كتب التوحيد، الفقه، الحديث، التفسير، الثقافة الإسلامية، وقراءات الهامش الأساسي: «صور من حياة الصحابة» «وصور من حياة التابعين» وحصصها التي تأكل المنهاج الدراسي في السنة، أي مواد علمية جدير بنا تعلمها، وتختفي من مناهجنا متعلمة..؟..

.. لا فلسفة.. لا موسيقى.. لا عقل.. لا جمال..

.. أسيكتب علينا كما كتب على الذين من بعدنا الاستنجاء والاستجمار من جديد.. أم المسح على الخفين..؟.

.. أترى لنعرف مكاييل الزكاة بنت لبون.. أو شياقل الحبوب والحنطة التي كانت تجيء من البصرة..؟.

.. أذكرني ومدرس الأدب أبو يزيد الذي ترك التدريس واشتغل مذيعاً، حيث كان درّسني في المرحلة الثانوية وتصادفنا في ردهة الطابق الأول، فطلب مني بودّ مرافقته الى الغرفة المخصصة لجمعية الأدب والقراءة التي أعطوه مسؤوليتها. دخلنا الغرفة، مغبرة، سواد اللوح أشهب.. بلا مقاعد هي والغبار يسكن الزوايا مع العناكب يتسلى. جلسنا في الرواق على مقاعد خراسانية. يزفر ويتمتم:

«هذه هي جمعية الأدب..؟

إني استخرت اللّه ورضيت بعهده. أما أن تكون فارغة فأي عجب!؟..».

.. ظننته اندمج بدور مسرحي شعري لولا أن التفت إليَّ وهو يلقي: «تعب كلها الحياة..» لأبي العلاء المعري، شاعره المفضل، وأخذ يشرح البيت ويتمثل بغيره ويتوالى حديثه وسألني عما أريد أن أصبح، قلت: «ملوّن..»، تقوس حاجباه، ربما خيبت أمله مع كل الغبار وخلو الطلبة منها. إذ لم يعرف عنها أحد. كثير من الطلبة عند ملعب كرة القدم أو أفنية المدرسة الأخرى.

.. «لأكون شاعراً بالألوان رسماً والأحجار نحتاً..» حاولت بمثل لغته المسرحية، ابتسم، وقال بلسان شيخ وهابي دسم السخرية: «لا يجوز تصوير ذوات الأرواح، ولا نحت الأصنام. الأدب هو أقرب إلى التقوى..».

.. غلب غيظي فسحة من الصمت والحلم، فتذكرت مدرّس الثقافة الإسلامية: «.. إنّ أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون، فيقال لهم أحيوا ما خلقتم..»، لا أعرف يوم يكون ذلك اليوم فرصة كبرى للإلّه ليمنح خلائقه عطاياه بنعيم الجنة حتى إن مضى بعض في غيابة الجحيم تخليصاً لحرق الذنوب والخطايا، لكنهم سيعودون بنعيم الجنة، فهل سينشغل هذا الإلّه بأن يباهي بقدراته الخارقة التي أنجزها

على الأرض ليعيدها في سمائه لحظة أن الكون خارج نطاق إرادة الإنسان وعقله، ويستعرض سلوكه الغيور كما لو كان إنساناً؟!.

.. ترى من رسم صورة هذا الإلّه وسلوكه عندما يستخدم لاءات الإنسان ونعماته، فيكابر على حاجة خلائقه له في أحلك ظروف كما حدث لحظة الخروج من طغيان أمم أوجب أن يحنو فتراه يغضب في توراتهم كما في فقهنا: «لا تنحت لك تمثالاً، ولا تصنع لك صورة ما، مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من أسفل الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلّهك، إلّه غيور..».

.. من قال إنني أتحدى خلق اللّه إنني أتخيل، وانفتح لي فرصة تخيل أنني بين كثير من اللوحات والمنحوتات في عرض رائع تتكلم، تغني، تتحرك وترقص محاولة أن تقلد الناس بتصرفاتهم، وبالطبع يدرك الناس أن هذه ملهاة أو مأساة صور منتقاة من حياتهم سمح بها الخيال الآتي من بين الذاكرة والنسيان، وسيفرح الله بأن الإنسان أسعد سواه من البشر. ألم يعمل لهم شيئاً مما حق لهم..؟، وفي كل سيكة الحلم والغيظ هذه أرى ألماً مضاً في وجه أبي يزيد، مدرس

الأدب، أخفاء يربت على كتفي ليذكر بوقت انتهاء النشاط، ولأعد الى الفصل..

* * *

.. ها أنا ذا أعود إلى العمل بعد ساعة الغداء وليخرج طلال الى موعده بعد أن كان يأخذ وقته مبكراً لأنه عرف أن عزة غيّرت موعد غدائها. فهمت ذلك عندما واجهتها خارجة تسألني عن عائشة وأنا راجع كانت مرتبكة وكنت لاهياً بأغنية..، وأحمل حافظة القهوة لأمضي بشربها بقية الدوام، وكان طلال يسرع ليخرج من الباب الثاني. إذ ليس من عادتنا استخدامه إلا وقت الخروج النهائي من الدوام.

4

.. أربعة اتصالات في الجوال من ناصر، لم أرد عليها. ماذا يريد..؟. ماذا ينبغي علي أن أقول له..؟. إنني كلما أقرر الابتعاد عنه بداية بعدم الرد على اتصالاته يفسرها دلالاً مني عليه لتنداح المكالمة معه عتباً أجْرَد وشرهة باهتة..

.. أي بشر هو..؟. «شف هو لمَّاح بس غبي..!» ما قاله وضحك ابن خالته أول ما عرّفه بي: «إنت جَرّب وشوف..!». لم أكن أستوعب لحظتها وربما إلى الآن مقصده من: «إنت جرّب وشوف..!». أي: أن أتعرف على لماحته وغبائه..؟..

.. أي كائن ذلك له اللماحة والغباء في آن واحد، أتراها تشبه الذكاء والسذاجة. عندما قال لي منصور: «إنت ذكي بس يبغى لك خبرة..!».

* * *

.. تسع سنوات معه. في ثلاث منها قرر أو ربما قرر له أحد، على ما أظن أمه أو عمه، الالتحاق بوظيفة وزواج لينتقل إلى جدّة. رغبة منهما ليترك حياة الليل من حشيش

ومصاحبة الكأس شرب الهيم. ربما ليبعدوه أيضاً عن علاقته الخاصة!.

..ربما من أصدقائه الضباط والتجار الصغار الذين يستغلونه ليعد لهم مثل هذه السهرات، لأنه بوجه طفولي تنجيه البلاهة من أي حومة شك عليهم، لكن لم يكن إذ غاب عني أشهراً ثم عاد.

.. لا أدرك تعلقه بي وانتفاء فكرة أن أتركه. ربما الإنسان يختار في حياته مرة واحدة حبيبه وطريقة حبه. عمله أو ما يستطيع عمله في الحياة. أصحابه أو من يستطيع التعامل معهم وفق طبيعته وأخلاقه.

.. حاولت الدخول في علاقات عابرة مبرراً أن تعدد التجارب القصيرة خيارات، لكنها لا تبقي في نفسي سوى شعور خيبة لو استوهمت متعة صغيرة تكبر في خيالي لحظتها، ولا يبقى لي بعد مضيها سوى شرود مجهد أو هروب دائم.

* * *

.. عندما أوحى لي بمسألة سفره لجدّة وتطمينه حينها أن علاقتنا باقية كأنما يقصد أنه سيبقى لأنه لن يبحث عن سواي. ليس لأنني أتمايز عن غيري بالشكل أو بالعقل، وهذا ما لا يعرف أن يعبّر عنه أو لا يدركه بل لأنني الذي التقى طريقي بحياته، ولن يتركه. أهو الوفاء الكلابي..؟.

.. أهي غريزة من طبع مستحكم لا فرصة اكتساب عادة لديه..؟..،

.. أسلّم كل شيء لنية القدر..!؟.

.. الغريب، حالة البقاء معه على علاقات عابرة تراها تكون كذلك على هامش علاقتي به، أتوقع أننا نحن الرجال، أو الشباب في علاقاتنا نختلف في شيء عن الزوجين رجل وامرأة، لكنني أكتشف أننا بنفس العقلية والأدوات التي لا تهرب منها بل استحواذها علينا لا ينفك حتى في علاقة مغايرة إنما هي على الصعيد الشكلي فقط. لم يدخل فيها تطور أو تقدم في معناها. هذا سبب إحباطي؛ وجعلني كثيراً ما أتطلع إلى صحبة أجنبي لعله مغاير عمَّن أنا معه!.

.. القرار ليس صعباً قدر ما التخوف من المحصلة. هو ألمٌ يزيد رصيدي من الأوجاع الملونة والمتنوعة..

.. كل ما تربينا عليه قبل حرب الخليج الثانية انشق عن أقنعة وتجليد ما إن اعترته الطبيعة بعواملها زلازل أو عواصف. الإنسان وحماقاته ورعونته، تكشف عن هذه القشور والهشاشات. حالة تعرٍّ ليست إلا من شبق القباحة. شبق الجهل. شبق التخلف.

* * *

.. أريد الخروج من نفسي ومن هذه المدينة. أسراب من التهيؤات، وتجييش أحلام توكلني إلى بعيد من غير تحرك،

وعلوّ من دون صعود، وأعود لطاولتي بسلال ملأى برعشات ومزاج عكر بالخيبة والجنوح إلى خنق التباكي...

.. يا لجبن الدموع التي لا تعرف طريقها إلي. التي تنسى روحي في وحل الأوهام. يا له من جبن عليه أن يتركك..!..

.. كل وجع يبتدىء إذا زفرت نهايته. حياة مسنونة بالنكد. هربت من البيت أسابق استقلالي عنه. أبحث عن حب يحمل في جوفه الحنان والرعاية. ذلك الحنان، غير حنان الأبوين، الذي لم أنل سوى أقله إذ راحت الرعاية بالأكل والملبس والتعقب الأخلاقي بالوعيد والنصح المقلق إن اختلت والرضا عن الفعل ما وافق هوى أحدهما وأقل تعبهما..

.. ثمة اهتمام وحنان يبحث عن أحد ليُعطى إليه أو يناله من آخر في غير بيت الأسرة، وهذا ربما ما حاولت أن أجده أو أوجده لدى ناصر..

* * *

.. لماذا أحتفظ بتلك العلاقة المعتلة من سذاجته وخضوعي..؟.

.. أتطلّع إلى المطر الذي يرشق زجاج المكتب وألقي بنظري العاثر إلى لوحة سميرة يعلى، زميلتي في قسم الوثائق

حيث تتذرب، التي أشعر لكثرة خطوطها في اللوحة ما يثير أنها لا تعرف ما هي في التصوير رسامة أم نحاتة أم ملونة..؟.

.. زفرت قبل ارتشاف القهوة أي علاقة هذي التي لن ترتبط بأغنية أو وردة أو مكان احتويناه وشكلنا زاوية جلوس وتقفّي الزمن فيها..؟!.

.. لا هدايا بيننا..!، ولا كلمات موشحة بالتذكار والهوى بيننا..!.

..: «يا اللّه، اش قد سقيم إنت يا تركي..!».

.. حتى اسمي، حين سمعت ما قيل عنه، لم يكن له سبب سوى أنه من بقايا حملة إبراهيم باشا وابنه طمسون على نجد(*) في قرن زائل. أزال دولة بتفاحة وسجادة، لكنها عادت: «الناس تقطع الشجر فينبت، ويعود». كما قال ابن المقفّع. حتى بياضي وشعري الأسود حائل والقصيم يقولون لاختلاط الأتراك بأهل القصيم وتزاوجهم منهم. كانت الحملة كلها رجال، وعمال مصريون ونسوا ظلال لهجة جدّ كلداني سحيق في حائل والقصيم منذ جلاهم ختم حضارة بتحية قرون الإسكندر المقدوني، لكن أهلها لم تقبضهم الأرض

(*) 11 أيلول 1818.

موتاً بل سعوا تجاراً بقرون مواشيهم وأنفاس مدن البخور في دمشق، والبصرة ومصر. هذه أسباب أخرى. إن لم تكن العروق الآرامية ما انفكت تنبض حتى حين.

.. مهما عاشت نجد في أوهام نقائها، فإن فيها من أحفاد لوّثتهم شهوات المردة والسعالي والغيلان..

.. مهما كانت نجد خرساء، ففي وجوه أهلها صحف تحمل وطء الزمن عليها.

موَّال أفزعه حنين التيه

1

سميرة

.. على أنه كأي موظف جديد: «شاب وسيم وهادىء..»
هذا من تعليق بعض الزميلات أو بين سطور كلام الزملاء،
غير أنني أرى بوجهه حيوية توحي بنشاط لا أعتقد أنه مؤهل
للعمل هنا ربما أخطأت به قدماه إلى المستشفى، وهذا القسم
بالذات. إنه لا يدخن في فترات الراحة/ Break-time، ولا
يشارك أحداً القهوة بل يأخذ كرسياً ويجلس في الحديقة،
وبعد شهور صارت ثناء الموظفة ذات الأربعين خريفاً وشتاء
وربيعاً وصيفاً كما تغنيها مثل أطفال محطة Space-toon،
تجلس في نفس المكان، وليسا معاً الاثنين. إذ أراهما مع
بعض وأشعر بما لا أفهمه ربما لعدم جدّية تفكيري بذلك،
لكن بينهما رابط، لا يعيانه أو أنا أجهله وأريد أن أنبههما
إليه. أرى عفوية الطفولة ما تجمع ثناء الخمسينية وتركي
العشريني. عمري بينهما يتمرجح.

.. عائشة ظلت دائماً تغتاظ وتهزأ من أن ثناء لا تحرص

أن تشد غطاء رأسها، ولا تبالي باقتراب أطرافها إلى غيرها من الموظفين الرجال، تكلمهم كلهم وتضع مرفقها على كتف العم عثمان السوداني الرخيم الصوت المتكلم معها بحميمية أو حين يضاحكها هي وتريزا.

.. رأيت تركي يشاركهما على تعنت من العم عثمان الذي لم يتقبله، وكان يشاركني دون بوحنا لبعض بأن تركي ليس لهذا المكان يختار عباراته في الصباح مميزة: «صباح الحلوين، صباح الشوق وصباح الحب» التي لم أسمعها مع أي أحد من الموظفين والموظفات إلا ساعة يريد أمراً على تثاقل منهم ومنهن!. حتى عباراته بالإنجليزية مميزة وتعجب الأجانب وقت الغداء إن رأى أحدنا متوجهاً لساعته.

.. المسز مينا، مشرفتي في القسم، استطلفته للغاية، وقالت: «Not like the other saudis!» وسألتني عنه مسبقاً ولم أتعرف إليه سوى قبل أيام حين كنت أمر ماشية إلى مكتب البنات، فواجهته مع المشرف (الزرافة) كما صار يسميه بيننا وعرَّفه عليَّ كموظف جديد.

: «Is he a new employee?

: He is looking a nice guy. I would like to talk with him!».

جاءتني، وقالت:

«OH.., He kissed my hand!»

ابتسمت لأخفف انفجار ضحكتي. ألهذه الدرجة وصلت

سخريته..؟ مشيت معها ومرّ طلال (ثقيل الطينة)، ورمقني بنظرة ملغومة:

«Just ignore the bootless dog!»

قالت ذلك وسحبتني معها.

.. ثمة ما يجمعني مع هذه الأميركية السمراء من تكساس، وأنا سمراء من أقاصي الجزيرة، وتقول جدتي إننا من مكة وأصلنا من الجنوب عائلة آل يعلى..، لكن ملامح (مينا) توحي بأن جذر لون مشترك وغائر في جغرافيا جيناتي وخلاياي.

***

ـ «الجو حلو..!».

ـ «ليت معي ريشة عشان أسمّي الورود والعصافير وظلال الناس»

ـ «كأنك شاعر..»

ـ «سميرة إنتي نحاتة كويسة..»

ـ «حدّادة..» وضحكت..

ـ «لا نحاتة..»

.. كنت دائماً دون قصد، أحياناً عن عفوية أوصد باب الحلم أمام وجه تركي.

.. إذا تداعى تفكير بالرسم لا أريده أن يخيب ويصطدم بحرام الفتاوى أو ما فعلت عمتي موضي حين حزت صور

الأشخاص في لوحات معلقة في غرفتي، وقالت: «حرام تصوير ذوات الأرواح.. يقول الشيخ..» كرهتها؛ لأنها لا تعرف أن تحب الفن ومعناه في الوجود. الطبيعة وشعاعها فينا.

.. ماذا قال جبريل للنبي عندما سأله عن الإحسان: «أن تعبد اللّه كأنك تراه..»، ألم تفهم هذه العبارة أنها الدعوة إلى تخيُّل اللّه بالحسنى..؟.. بها انفسح لنا المجال بتصور اللّه لتحقيق عبادته، ولكثير من الأمور الرائعة..

.. الصورة طريق نحو اللّه..!.

* * *

.. حين عرف أنني صاحبة اللوحات الثلاث في مكتبي فرح حيث دارت كل سوالفنا عن الرسم والنحت، متأكدة أنه رسام أو له علاقة بذلك، فأهديته واحدة من الثلاث فوضعها في مكتبه، ودائماً ما كنت ألمحه بعد الظهيرة يرشف القهوة ويطالع اللوحة بتأمل يشعرني بالذنب تارة وأخرى بأمر لا أكتنه معناه في لوحتي على أنها كانت أمامي سنة كاملة، لم أفكر أن أسأله عن ذلك الشيء الذي يلاحظه تشاغلاً أو دفناً لأيّ ناعق يصوِّب عليك بالفتاوى كل حماقاته. إنه تعدّ سافر على النفس البشرية، الفتوى محض اجتهاد ليس تشريعاً لشأن عام..!.

.. تركي أعاد لي شوقاً قديماً ربما العمر يسمح به إلى

الآن، لما لا..؟. إن جلوسه في الصباح عند حديقة المستشفى برفقة ثناء يثير في خيالي خضرة لون يتموج بين الأشجار وسحر الحياة تتنمل أصابعي لحظتها خيبة إن ما بيدي قلم أو مزيل حبر لا ريشة مبللة باللون أو إزميل يقرض خامة ليعيد تشكيل هذه الخضرة وساعة جمعت بين السنجاب والوعلة.

* * *

.. دخلت معهد الإدارة العامة بعد الثانوية يوم عزت عليّ أرقام مجموعي الدراسي لأكون طالبة جامعية في كلية التربية لأختار قسم التربية الفنية: رسماً أو نحتاً أو التصوير الفوتو ـ غرافي غير المدرج كمادة في الكلية ذاتها والقسم ذاته. ما عزاني حينها لتركها، ودرست في المعهد إدارة مستشفيات. فهرسة وتصنيف ملفات. درست عملية جراحية للفتق الاربي على أنني لن أكون طبيبة، ولا ممرضة. بينما الأطباء والطبيبات الشباب حين يأتون عندي ضمن برنامج تدريبهم ليعيدوا مراجعة أوراق العمليات في ملفات المرضى يسألون عن مصطلحات جراحية، وأسماء جزيئات الجسم أجدني أجيبهم، على أن لا علاقة لي بتلك الجثث التي تساق إلى الثلاجات بعد أن يعلنوا عدم تكيف الجسم مع البنج أو العلاج، فحق لهم إراحته لا ربما إراحة أنفسهم من جهد

مراعاته ومتابعة الحالة واستنفار القدرات والإمكانيات لإتمام أقصى ممكنات العلاج..

.. أعتقد أن الروب كفاني حمل عباءتي السوداء، ومثلي ثناء على عكس من الموظفات الأخريات، عائشة، عزة ونجلاء المثقلات بهذا الإرث الوافد علينا من إيران والهند على وجوههن إما نقاب وإما حجاب كما تلبس عائشة وتفرق عزة بطرحة على رأسها كما تلبس: «راهبات.. دير» كنت أقولها هزءاً بها إذا تشدقت أن غطاء الوجه هو اللبس الإسلامي!

* * *

.. أحاديثنا أثناء فترة الغداء لا تخرج عن الضحك والمزاح أو الكلام عن لبس أو مكياج إحدى الموظفات، وجفاسة مديرنا وتملقه أو صدامه. حذره مع عائشة التي كادت أن ترفع بوجهه الدباسة يوم أصر أن تصور معه لأنها أقدم الموظفات السعوديات لتوضع في نشرة المستشفى الداخلية عن نجاح مرحلة السعودة، ونحن لم نزد على أصابع اليد الواحدة. لم تكن إلا شكلية استبدال الفليبينيات بالسعوديات في وظائف بسيطة وغير مطورة للكفاءات أو القدرات، وبقي المشرف عليهن هو مشرف الإحدى عشرة سنة الهندي مهران المنتفخ الخد الأيسر دوماً، أضحكني تركي عندما علّق: «كثر العلف ما فاد فيه لازم يغير الشجر اللي في مكتبه..!». ضاحكة وأستغفر الله محاولة أن أكفه،

وهو يواصل: «المحمي مو عاجبك تراه أحلى سماد..». يتحدث بالعربية ومهران لا يعرف إلا القليل منها، ويعلق: «إيش فيه إنت..؟!». يغادر تركي خلسة مثل طيف، ولا يبقى من غضب مهران شيء يتبدد.

.. عرضت على البنات مرة كسراً للروتين الوظيفي أن نخرج نهاية الأسبوع معاً للعشاء في أي مطعم. إذ دوماً أسمع أن الموظفين الشباب ما يتفقون على الخروج إلى استراحة، فالنساء لوحدهن دائماً والرجال كذلك.

* * *

- «لازم تجي، يا تركي!.»
- «ماشي..»
- «وش قصدك..؟. تصرّفني؟»
- «لا بس يكفي أساهم بالقطة(*)..!»
- «نبك تجي..!»
- «خلاص، يصير خير..»

.. لم أكن أستغرب تملصه من الذهاب معهم لأنه ليس من عالمهم. أشعر أن له أصدقاء خارج نطاق المستشفى إذ لم يرتح إلى الشروع بمصاحبة أحد منهم غير إذا ما استلطف وتجاوب لدعوة قهوة عربية يفوح هيلها من الزمزمية(**) إذا ما

(*) المشاركة بالمال.

(**) حافظة للمشروبات.

أحضرتها نجلاء. أو زنجبيلها إذا ما كانت من عائشة لأنها ذات أصول حضرمية، وشكرنا على حبة شوكولا لم يأكلها حينها وارتشف القليل من القهوة أو راح بها خارج مكتب التقارير لينجز عمله على الكمبيوتر. إذ يتجنب البقاء طويلاً معنا لئلا يحدث هذا الأمر أي شيء عند آخرين.

* * *

.. فكرت وخفت من عواقب جنون الفكرة لو دعيت تركي إلى عشائنا أنا والبنات، لكن أعرف أن عائشة لن تقبل لتحفظها ونجلاء لخجلها وعزة سوف تطالب بأن يحضر غيره..!.، فلا أظن أنه سيوافق أو أن أقدم على ذلك اتقاء وقوعنا بيد (الهيئة) فتنال تنكيلاً منهم، ولا أروع من أن يكون منهم...!.

.. ما سبب اجتماعنا أو (خلوتنا) مع بعض..؟ وأين أهالينا منا الذين لم يؤدبونا، ثم بالتشهير والإرهاب ننال تأديباً على إهمال والدينا لإساءتهم في تربيتنا..!.. ربما إحدانا بهوجة غضب أهلها تنزع من العمل، لا...!.

.. حرام عليّ أن أصيبنا بما يمكن تجنبه، لكنها الطبيعة تلغى فينا..؟. مجتمع ملتهب. سيتلذذ في تنفيس كبته بتضخيم فضيحة يشفى بها. سنكره أنفسنا في هذه الحياة التي بالكاد نطيقها.

* * *

.. أرى الموظفات الأجنبيات والطبيبات أو الممرضات من أميركيات وكنديات وحتى بريطانيات، حاسرات الرؤوس، شعور حمراء وشقراء.

.. الهواء يلعب بخصل وتشع الشمس بلون شعر (ليزلي) البريطانية العجوز ذات الحمرة النحاسية الفاقعة، بل حتى الفلبينيات الممرضات ممن يعملن في السكرتارية في كل أقسام المستشفى، يراكمن المساحيق والأقراط. اللباس الباريسي التصميم الذي ينال من جمال موديلاته قصرهن وبدانتهن. الألوان الصارخة والغامقة توحي بأنهن يستعرن هذه الأناقة لاستدراج وإيناس الرجال إليهن لأن الأجنبي لا يحب إلا البساطة، لكن ممن تعلمنها..؟.

* * *

.. شاشة الكمبيوتر أمامي، لكن لا أستطيع لمسها أو رشقها أو توزيع سوائل عليها بالضغط أو المسح بأصابع لا تحمل ريشات بل ناكدة على لوحة المفاتيح، وقاعدة لوحة الرسم في غرفتي لم تكتمل آخر تخطيطاتي البطيئة بلون أسود وأزرق داكن وبعض رتوش من الأخضر التي عنت ببالي يوم حدثني عن اللون تركي. أرمقها كل ساعة جلوس أمامها لأستدرج نفسي نحو خشبة الألوان والعبث فيها لموضوع رسمتي الذي لا أعرفه حتى الفروغ منها..

.. زرقة داكنة في جهات قليلة، وبقع خضراء لا دليل لها.. سواد كثيف وخطوط متعرجة..

.. هل سأبقى هكذا إلى أي حين..؟،

.. أترك الرسم، وتكثر الأشياء التي تخزني لتذكره إن الأحاديث العابرة مع تركي أو تذكري لفاتن صديقتي التي أفقدها كثيراً، تَجْخر في دمائي المتحجرة حالة شرودي الدائمة والتعب الذي يقودني إلى كوب شاي أتملى منه ويبرد، وأنا أطالع لوحتي الناقصة مثل فرس يغري بالامتطاء، لكنني فارسة الخذلان..

.. تباً، لهذه الصحراء إن لم تتحرك الشمس تبهت الألوان وتشهب.

: «شو هالأفق يللي بدك يعطيني إحساس بشي..؟!» هذا المصوّر السوري الذي تهكّم علي عندما عرف أنني رسامة أو أحاول ذلك وسألني عن محفزي قلت: «أفق الصحراء..»، وقال: «مانك شايفة، يا مدموازيل هيدي غبرا بس..!».

* * *

.. كل يوم أحضر صباحاً، وأخرج ساعة الغروب من العمل، ولا أزكي لنظري تأمل هذين الوقتين وسحرهما، أقابل الأول بتثاقل المجبرة ترك نومها، والثاني المنهكة من وطب يومها..

.. أنشد الخلاص..!

.. مينا تلح عليَّ بزيارة أميركا، لكن كيف تتم الرحلة..؟

.. أسيقبل أهلي السفر وحدي..؟. أنا الرافضة لكل قيد أوله وأوسعه الزواج، بماذا سيفسرون سفري..؟. هل يطمئنهم تذرعي بمصاحبة مينا..؟!.

.. ربما..

2

تركي

.. تنكشف السماء عن زينتها المطريَّة. عن بهاء الغيم عليها؛ لتوقظ النجوم الغافية بهموم المُتْعبين.

.. تنكشف هذه السماء بما يسمُّونه الصَّحْوَ كأن المطر لم ينزل. شوارعُ شاحبة، وعلى أطراف جوانب السيارات وحولَ عالقة.

.. هنا الناس كذلك. إذا انكشفت أقنعتهم تبدَّى لكثير منهم وحول أخلاق شوهاء ومُتَطَحْلِبة على أنفسهم..

.. الأنفس المُتَطَحْلِبة لا رقرقة حلْم فيها..

.. الوُجُوهُ ذوات وحْلٍ لا شفافية أو صفاء فيها..

.. الناس يشبهون سماءهم.. غيومها إشاعة، والشمس حارقة لاسعة مثل نفاقهم واستهلاكيتهم.

* * *

.. امتعضت على طواعية كشفي لسروالي المُقَوْصَر والسنة ليرى الطبيب مثانتي على سرعة دون جدية في الكشف الطبي

قدر ما كان فعلاً يريد إكمال بيانات ملفّي الطبي من أجل إتمام إجراءات الوظيفة حين قلت إنني قمت بعملية فتْقٍ إربي.

.. لم يرغب في إنهاء قياس الضغط. تركه للمُمَرِّضة الفليبينية الحانقة حيث أرجعها عن موعد غدائها. أخذتني إلى غرفة الأشعة وطلبت مني بأدب وتهذيب أن أخلع شماغي، عقالي، طاقيتي وثوبي لألصق صدري بذلك اللوح الأملس الذي كان أقصر مني مستوى ارتفاعه. أخذت صورتين بل ثلاثاً، وأرشدتني إلى المختبر للتحليل إذ أعطاني الموظف هناك الأنبوب الصغير بكل حياء ومهانة خضوع.

.. خرجت من الحمام. كان بوجهي مراجعة سمراء بدينة من خلف نقابها وعباءتها حطّت نظرها أوسط جسدي، لم أبالِ. سلمته الأنبوب، وكتب موعد استلام النتيجة.

- «يعني ما عندك مشكلة تدفْ عَرَبيَّة..؟»

- «شي المِشْكلة، مو هذا عمل..؟»

- «يعني عادي عندك..؟»

- «عفواً حايين تنفروني من الوظيفة..؟»

.. كان المشرفان على قسمي الملفات والتقارير مَنْ تولَّيا المقابلة الوظيفية ربما هي الحماقة بعينها أو إشفاقاً عليّ..؟! حيث سألا وأكّدا.

.. خرجت من هذه المقابلة التي كانت مقلقة، ولم تشعرني أنها بطاقة لتعريفي بطريقة التعامل في العمل كله..

حيث الرخاوة الإدارية وتصعيد الواجب الوظيفي كأنما هو كل شيء، وبعد عشر درجات أو أكثر يأتي الحق أو ما يمكن أن يعمل تحت عبارة: «لك أن تأخذ إجازة دون معارضة إجازات الموظفين الآخرين..، لك أن تطلع ربع ساعة في أوقات Break للفطور صباحاً للقهوة أو التدخين عصراً..، لك أن تروح فترة غداء ساعة بالاتفاق مع زملائك... لِكْ.. لِكْ.. لِكْ..». فضلات يلقون بها مثلما تلقى فضلات لهم ممّن هم أعلى..، وغيرهم الأعلى ترمى لهم فضلات من عِلّيين آخريات..!

3

.. ما أروع الموظفين الذين أنا معهم..!.

.. عبدالله ذو الوجه الكلبي المبطَّن الخدين عند زاويتي فمه بشفتين ممتدَّتين على سطح الوجه لا نافرتين، رأيته بعد إجازة مجبَّس الرجل اليمنى حتى الساق، صوت زاعق وناشز لولا حيويته التي تذهب بالمزاج كل الوقت، فلا جدَّ في حياته يعلَّق بتفاهة تستجدي الضحك المسبق في ظنه بينما لا يتجاوب معه سوى بمجاملات الابتسامة الصفراء تحميه منها نقاب الزميلات اللواتي معه.

.. محمد/ Team-leader، قسم التقارير والبدين جداً، يتكلم لهجة بدوية، يحاول أن تكون عارضة على لسانه متحدثاً بلهجة أهل الرياض بمط وتفخيم الحروف صامتها ومعتلها لشعوره الداخلي بنفور وربما عدم فهم كثيرين لها.

.. بدر، ذلك الجنوبي من نجران يحفل بضحكة بريئة يفرِّق منها لداع أو لدونه، قصير النفس يتكلم لهجة تخص أهل مناطق الجبل هناك. يلذُّ له بكل استمتاع بأن يدخل عبارات يوظفها عبر بديهة، من مسرحيات مصرية تكنس وجوهاً شهيرة في لحظات خاطفة كما عادل إمام: «رقاصة

وبترقص» على طابعة طلبات مواعيد المراجعين، و «قعد يمضي على أطباق..!؟» عندما أصادفه عند مطعم المستشفى الداخلي، «وكنت تستحمين فوق الجبل بنار الهوى..»، ثم يفرقع بضحكته لعجزه عن استرسالها.

.. سعد، البطيء العمل، شاب نحيل وأسمر كثير الكلام، والنكات التي لا تطاق وأسلوبه حين إلقائها يقُرِّب بفمه مثل جلب أطراف المواصير على شارب يفترق عند منتصفه ملمحاً منغولياً غائراً في وجهه.. خالد وطلال. سعوديون وسعوديات. فلبينيون وفلبينيات بتحياتهم الخاطفة:

«Ayos ka ba?(*)

«Ayos lang ako»(**)

.. مديرنا ذو كرْش متدلٍّ يعلق إبهام يده اليمنى بآخر فتحة أزرار ثوبه ويمشي ناسفاً ذراعاً واحداً من شِمَاغه وتاركاً الثاني مرمياً وراء ظهره وربما هذه سياسة العمل، بعض من العمل ينجز وكثير يهمل!. يسأل ببلاهة عن العمل ويطيل، فيعطل لكثرة استفساراته عمّن خرج وعمّن تأخر..؟ ولماذا لا يرى فلان..؟، وأين فلانة..؟.

.. ينتفخ بكثير من السذاجة مع الموظفين والموظفات الأجانب متحدثاً بإنجليزية يلقّنونها إياه همساً، حيث يخضع

(*) كيف الحال؟ بالفليبيني.

(**) بخير بالفليبيني.

لتدريبات عليها مع زوجته الكندية التي أسلمت منذ زواجهما غير أنه أشيع أنها عادت إلى بروتستانتيتها بعد أحداث الحادي عشر من أيلول.

.. هذا الأيلول منذ زمن حمورابي وصم بالولولة والتهليل.

.. جرَّ ابراهيم باشا جيشه ليسقط إمارة نجدية في نفس التاريخ والشهر، وللفلسطينيين في الأردن سواد.

.. ولفيروز في أيلول تعود الغيوم والقمر الوحيد، ولا يعود إلينا من ننتظر..؟.

.. زادت الإشاعة حدَّتها على زوجة المدير بطلبها الطلاق. كما طلبت ديبورا البريطانية من أصل إيرلندي الطلاق من زوجها السعودي الذي طمع براتبها الفائق للعشرين ألف ريال، أسْلَمَتْ من أجله ولبست عباءة وطَرْحة زرقاوَيْن اشترتهما من مَشْغَل عباءات نسوية في جدّة عندما راحت تعتمر، يشاع أنه ملك الممثلة المصرية المحتجبة سهير البابلي.

.. ديبورا كانت مغنية أوبرا..

.. وسهير البابلي كانت ممثلة كوميدية.

.. الأولى غدر بها زوجها البريطاني وأضاف محلولاً حامضاً أنهك صوتها حتى فقدته، وانكسرت فطلقته..!، وتزوجت ثانياً. اكتشف أنها تكتب مقالات اجتماعية عن تجربتها السابقة، فمزق أوراقها، طلقته. جاءت إلى السعودية

تعزي فشلها بالهروب إلى مال كثير لا تعرف لما ولمن تدّخره..؟. تحاول إفناءه بالأكل عبر الحفلات..، وبالملابس كل سفر..!

.. الثانية ممثلة رافقت العندليب الأسمر في أغنية: «ضحك ولعب وجد وحب» مثل موديلات أغنيات الفيديو كليب الآن، وضربت شهرتها عبر أعمال كثيرة بعد طلاقها من منير مراد الذي كانت تخنقه وتخجل من موهبتها، فاشتغلت بعد طلاقها له: «مدرسة المشاغبين، ريا وسكينة، بكيزة وزغلول، ع الرصيف، العالمة باشا وعطية الإرهابية..». حيث شك رجال المخابرات أن تديبها قنابل!.. ربما ذلك ما ظنته في الموظفات السعوديات زوجة المدير وقررت ردتها وطلاقها. ربما عودتها خوفاً من القنابل المحتملة خلف الطرح والعباءات..

* * *

.. العصفوران الهاربان في لوحة سميرة، شمال لوحتها: «منارة وموج» وكما أطلقت عليها وأعجبها ذلك.. كأنهما ديورا وسهير البابلي هاربتان من ماذا..؟.

.. مجيء ديورا إلى هنا بعد عمليتي زواج فاشلتين حقدا على صوتها وقلمها.. ماذا أفضى إلى نفس هي حطام بعد زواج فاشل براتبها لا بقلبها أو بجسدها أو بجمالها..؟.

.. سهير البابلي.. أعمال متألقة كلها تصعقني، وهي التي جعلتني أحب وردة حين قالت قبل سنة حجابها «كيف أعتزل الفن وأنا أسمع: دندنة.. دندنة..؟»

.. أنتهني سهير تاجرة عباءات..؟. سنقبل بكامل الودّ والاحترام اعتزال كثيرات ممن امتلأت كتيبات: «العائدون إلى الله» دعاة اللحى والشمع والمسابح والمصاحف بقصص تتويبهن، لكن ديبورا وسهير.. لا..!.

.. ذلك الاختيار المشوش والمعلق بين هروب لا مواجهة، تعاجز لا تحمل وإصرار كأنهما يدفعانني إليه على أن ديبورا الخاسرة كل شيء تقول لي في لحظة صفاء لا تشبه..

«Let me see your courage..»:

.. ماذا عن سميرة التي لا أرى لديها شعلة..؟. غارقة في فسيفساء العمل بتفاصيله وأوراقه بيضاء ومسودة، وردية وصفراء. حروف ميتة مثل أسماء أصحابها. وحَوْلَ من العبارات الآسنة..

.. أين الأحمر مبدع الوجد والهيام..؟.

.. أين الأصفر رائحة الغيرة والآلام؟..

.. أين الأبيض عفة الأمل والغرام..؟..

.. يا بدع الورد.. يا أسمهان..!..

.. أي مدى سحيق تنجرف إليه سميرة وتجرفني بخطاها..؟.

«يقول لها: أي زهر تحبينه؟

فتقول: أحب القرنفل.. أسود..

يقول إلى أين تمضين بي،

والقرنفل أسود..؟

تقول: إلى بؤرة الضوء في داخلي

وتقول: وأبعد.. أبعد.. أبعد..»

* * *

.. أنا الذي أريد أن أبتعد عن علاقتي بناصر، لكن ما العمل، يا لينين..؟..

.. هل هذه العلاقة واقع موضوعي، يستقل عن ذاتينا..؟..

.. هل هذه العلاقة مادة واقع نعيش فيه أم نتجت عنا وغرقنا فيها..؟..

.. أتجعلني هذه العلاقة برأيك..، محض صورة لا أجيد كنه ضبابها أو نسخة من رماد أفتعل تجسيدها..؟.

.. إني هلام زاخر بالتشظي، ولا سوى من أحد.

.. ذاكرة مستحيلة. ذاكرة تتجاسر لتقرأ بظفر خارج نفسها إعلان شفق الخيال..، حفنة نسيان ما أريد، ولو كانت قبض رياح.. سأقبضها مرة أخرى لتريح أثقال الذاكرة الملعونة..

.. أي جيل نحن هذا..؟. كل شيء لا يطاق حتى أنفسنا. ماذا فعل الأولون..؟.

.. أشعلوا الحرائق بذوراً تعقص بطوننا وتسم أجسادنا بل تخترق طموح دمائنا. ملغمة كل مشاعرنا، وجاء النفط ليغير على أخلاقنا، فتنتصب قواعد الشق.

.. لماذا الشق..؟..

.. إجراءاته طويلة ويحولهم إلى أبطال، ثمة عملية أسرع ولا تحولهم إلى قرابين لدرء الخطايا.. السيف .. صفاة.. في صفاة.. اضربوهم على الأعناق!.. (اضربوا القاسي يلين..!)، وهاتوهم إلى المذبح ليحرقوا وينتشي الرب بدخان لحومهم..!

.. ما العمل، يا قسطنطين..؟..

.. أي سماحة سوف تجعلنا من الغافرين لأولئك الحمقى الذين خلّفوا لنا تاريخاً معشقاً بالدنانير والجواري. الغلمان والخواتم المسمومة. الدراهم والحسان المقصورات في الخيام. اللبن والعسل. الوِلْدان الطوافان على عيون ذوات جحوظ وكروش تتفتق سراتها وكل شعرة منتعظة فيهم..

.. يلعنون الوطن باسم أرض الرب، وتحرق القومية لعين أمة الهدى، وسفك ركازها حجراً وسائلاً.. أنت تعرفهم مهزومين وقدريين. هاربين وسلسلة «هو صحيح الهوى..».

لوام ونداب. بل: «مش صحيح.. مش صحيح الهوى غلاب..».

.. أرأيت من استغل كل هذا..؟.

.. القومية أحرقها العسكر قربان ثوراتهم..

.. الشيوعية لرفع حرج سيقت إلى السجون الخالية..

.. بقي العقل مسكيناً لا حماة له. بلا انتماء ولا سقاية له.

.. استدرجه ذلك الوحش المخبوء الذي أهداه العبرانيون للحياة. قابيل زكاة غارمة ليبقى هابيل ويبني وحشه بالوعود التي لا تتم.

.. هؤلاء الآن، صرعى الجدوى.. صرعى الأمنيات التي: «ما إليهن سبيل..!» كما يزفر المحروم.

* * *

.. سميرة، هل هي مُخبَطة أم مُخبِطة..؟.

.. ربما صارت ما هي عليه.. مما رأته..!.. كلما أتحدث لها عن اللون والزوايا والأجساد. أشعر أن غباراً يتعالى بيننا وأغيب..

.. ثناء تعلّمني.. تدرّسني الصبر. تمر بمحنة لا أعرف عنها شيئاً ولا تتكلم. تنقطع داخل نفسها بصمت موجع مثل أي امرأة يدهسها العناء..

.. هذا الصمت الملغوم بما أملته قبضة الذكور على الأرض..

.. الآلهة والقرابين. سيرة الأطفال عبر أي قناة ينفذ إتيانهم.

.. ثناء معذبة، ولا أعرف سوى قنوط يرين عليها، ويغرق ابتسامتها في شرود أكثر الوقت.

***

- «إيش فيه، يا حبيبي..؟».

- «ما أدري، فيكِ شي إنتي مو طبيعية..؟».

- «ح أقولك.. بعدين..!».

.. كنت أطمئن بهذا المخدر الفوري. لا أدري لماذا تعاطفي معها يزداد؟. تلك المرأة الخمسينية التي أصبحت آلة تعمل بالتزام موجباً إياها وبعفوية حين تتلقى الضحك والتعليق الساخر المحبب إليَّ من أهل الحجاز رقة، وتشعر معه بصلة عميقة مع دعابة المصريين السيرة المفقودة للهكسوس من الجزيرة العربية إلى الشاطيء الآخر من إفريقيا المهجنة. ربما الخبر يخفى في ذمة أهل هاجر وعشيرة إسماعيل..!.

***

.. أمشي إلى الحديقة لأصل جسدي بشعاعة شمس بعد

أن آخذ كوب القهوة، وأجلس على دكة صغيرة تكاد تحمل القعود طرفاً من إحدى نوافذ المبنى، ألقاها آيبة يرويها الأزرق وشالها الموشك سقوطاً من جفاف صحراء لامرأة من البحر..

ـ «هيا قوللي كيف الصباح معاك..؟»

ـ حلو.. مثلك..»

ـ «إنت يا واد شكلك بتحب..؟»

ـ «الله يا سلام!»

ـ «أيوه أنا أحس كدا..»

.. أومىء لها وتزيدني، ثم توشك أن تدخل في مناجاة نفسها كأنما تلقي مبدأ القول علي، وهي تدحرج نفسها إلى حكاياتها، ثم تقف فجأة مشيحة إلى جانب جذع شجرة تتدثر بظلها، إذا ما مرَّ أحمد الموظف الأردني من قسم الأرشيف الذي أطرق برأسه متجنباً سلامه علينا، وهي ساهمة تنهض.

.. تمر بعض الموظفات العائدات إلى مكاتبهن. تنخفض الأصوات، وافتعال عدم المحاولة اختلاس النظر إلي أو ربما إلى الدكتور الأميركي الأسود الذي يحمحم طلال عندما نراه وكان صدفة واقفاً يدخن، وقال: «شايف هذا معه واحد أطول من اللي عندي وعندك..»، تطلعت في الدكتور بمشيته

المطرق رأسه فيها، وطلال يواصل كلامه: «.. شكله نافض أمهم ومزليبنا(*)». لم تكن ابتسامتي سوى زفرة قرف منه ومن فم إن خلا من السيجارة يمتلىء بالفصفص.

(*) زلّب: أهمل.

4

.. ورطتي بالعمل هنا تناطح رغبتي لخيار آت أو يختبىء في ذهني، لكنني لا ألقفه. ربما لا يقع أو لا يطير أو لا يقفز.

.. ندى، ابنة خالتي، عرضت علي أن ألتحق بمؤسسة الفن الراقي. أسستها أميرة رسامة مع فرنسي مهتم بفن البورسلين، وتقترح أن أتقدم لهم بأوراقي ولوحاتي.

.. ماذا أنا..؟ طالب متخرج من قسم: «الأنظمة»، لئلا يقال قسم القانون، لم أستطع دراسة فن الرسم أو التشكيل أو النحت ولا التصوير.

.. هواية أحترف بها أم لا..؟.

..: «جرب ما أنت خسران، درّب هالصغار..، ويمكن يساعدونك بمنحة..».

.. أمتعض من وضعي المشلول، أهمل كلامها، وأريد أمراً آخر، مغامرة أو مخاطرة تجرني إلى عتبات المجهول التي تتقاطر عليّ عبر هواجسي. إنما أحتاج إلى ضمانات تخرجني من مأزق استشعر قدومها وألح على تجنبها. ربما هذا المزاج التشاؤمي..، كما تقول ندى: «ليش متشائم،

ليش..؟، يا تركي، إنت مشروع فنان رسام بيطلع منك شي، حاول.. وش رايك؟ أكلم لك المؤسسة..؟»، «طيب، يا ندى يمكن المسألة ميب لذيك الدرجة..؟»، تحتقن مني وتباغتني: «الحين ما شفت نشاطهم وأنت بنفسك حضرت المعرض»، أرد: «إيه حضرت المعرض وعجبني..»، لكن تقفز تذكرني: «لا تكون ناسي وش قال مدير المعرض يوم وقعت على دفتر الزوار»، ..: «لا ما نسيت..»..

* * *

ـ «عفواً، الأستاذ تركي العمر..»

ـ «نعم، آمر..!»

ـ «تشرفنا بزيارتك..»

ـ «شكراً لك..»

ـ «احنا نتابعك من زمان..»

.. «من زمان.. (!)» عمري لم يتجاوز منتصف العشرين وطلعت أستاذاً من مقالات كنت أنشرها منذ كنت طالباً في الثانوية حين واجهت مع المرشد الطلابي تحويل جمعية التربية الفنية الى التوعية الإسلامية بالاعتراض والجامعة أيضاً مع توسع قراءاتي واستفادتي من مكتبتها. إنها مقالات أتكلم فيها عن الألوان بأنواعها وعلاقتها بالطبيعة والمناخ والمواسم. الخامات والأحجار. قرأت في موسوعات جيولوجيا ودوائر معارف عن الورق وأصله، الأقمشة وأنواعها..

.. أطّلع على موسوعة رسامين ونحاتين، وهناك المقالة التي تكلمت فيها عن اختيار ألوان جدران الغرف مع خامة الأثاث التي دفعت رسائل كثيرة تأتيني من مستفسرين ما إن كنت مستعداً لوضع اقتراحات لديكور بيوتهم وترتيب زيارة تعرف لإرشادهم عن الأثاث المناسب..

* * *

.. استغربت مما أحرزته. ألهذه الدرجة الناس تحتاج إلى واحد مثلي؟.

.. منذ البدء لم أستوعب حينها أنني أنجز شيئاً يهم الناس.

.. الفن يحتاجه الناس في كل شيء.

.. الألوان في ملابسهم وأكلهم. بيوتهم وأثاثها حتى سياراتهم. كل شيء يؤثر عليهم، لون السماء والأرض. المطر والغبار. كل شيء يؤثر إذا تعامل مع اللون والخامات. الرسامون والنحاتون. مصممو الديكور والصباغون. المزارعون والجيولوجيون.

* * *

.. اللون سيد من سادات الحياة.

.. لون حياتي هو الذي لا أفهمه. ما هذا الوقت الذي يفتعل بي كل هذا العصيان..؟ المزركش بابتسامات صفراء.

.. يا لها من صفراء في الصباحات، وتنفطر صفرة البيضة بين مقلاة أمي كل صباح.. أخواتي الصغيرات..، الديك الذي ما عاد يصيح.. صار عادم السيارة يشخر..

.. ثناء، هل انتهت حياتها بين سجن الشرود ولمح السراب..؟.

.. سميرة..، إلى أي شمس تنتمي أيامها الغارقة في وحل خضوعها..؟.

.. ناصر..، الشريد بين دخان ضياعه وتبديد إعصار حنقي..، لا بد من تغيّر شيء والعدة له، فالعجلة لن تقف..

.. ثناء لن تنتهي هكذا. سميرة لن تعدم الوسيلة. ليت للريشة سحر طموح دمائي وتذهب لتقترح أقدارهم حسنات، وأنا لي شعلة تخترق ظلامات هذه الصحارى، وهذه الشموع لو انطفأت كل هامة لا بد أن تشتعل.

.. هنا المستقبل نراه من حقيبة الحاضر وخزان الماضي ونبحث عن رقصات الحلم فيه بين سطوره وشخوصه. لنكتب إفادة تاريخية توثق لنا خُطا الآتي الذي نقوده.

غبارُ المدينة العارية

سميرة

.. إلتفاتة نجلاء صوبي كما لفح تحذير. لماذا هي متشنجة من الحديث أو ذكر زملائنا الموظفين. هل هو عيب وعار إن شاركونا هذه المناسبة؟ على الرغم من احتقان عائشة الدائم، فلم تخالفني الرأي، حتى عزة التي يندر أن نراها جدية تكون كذلك. عندما قلت: «وش فيها لو كانوا الشباب معنا..؟». عائشة: «أحس إنو نقدر نخليهم يستحون ويغيروا طريقتهم معنا».

عزة ـ ترد بغنج ـ: «قصدك المتزوجين والا العزاب..؟!»

ـ «يا شيخة، العزاب أحسن تعامل، شوفي تركي وبدر..!» تقول عائشة.

.. ظلت نجلاء ترمقني وتتخفى بشرود. لم تكن في هذه الحالة من قبل. هل هي مشغولة في حب لتركي أو بدر..؟. تركي عادي معها بل مع الكل في معاملته، وممازحاته تكشف عن شخصية لا نوايا خاصة لديه مع أحد، على أن ذلك

صعباً اكتشافه. أما بدر فهو نافر ويشاع أنه مخطوب بأمر والديه لابنة عمه كما تتندر عليه.

.. نحن البشر، هكذا ننشغل بمن نستوهم قصد تجاهله لنا.

.. لم يرق للبنات فكرة السفر إلى أميركا سوى عزة التي عرضت من حماسها أن تسبقني، وسرعان ما هبطت يوم أن عرفت أنني أنوي ذلك مع مينا..

.. منذ أن أعطتني فرصة الالتحاق في دورة الوثائق، وهي تحفز همتي أنا والمرشحين أنفسهم. تشجعنا وتعتني بنا. مهيأة إيانا للمقابلات مع المختصين التي نشف دمي بها مثل دفقة غبار في فمي، وأنا أجري لاهثة، والامتحانات التقويمية. ربما بقية البنات يشعرن بغيظ لفوات الفرصة أو عدم ترشيحهن لأنهن يرفضن أي شيء من الأجانب لتعذر اللغة النفسية البشرية التي لا يتقنونها، بل يوقفونها حاجزاً بينهم والآخرين.

.. مسافة حلم بين استنادي على هذه الكنبة، وضجيج البنات في بيت عزة. إذ دعت كثيرات. زميلات في العمل منهن أنا ونجلاء. زميلات الدراسة بعضهن من أيام الثانوية والأخريات من سنوات الجامعة. هناك قريباتها. عرفتني على اثنتين من بنات خالاتها.

.. المنزل مفتوح الغرف. جدرانه قليلة. الأثاث حسب

المساحة المتاحة بين الارتفاع والانخفاض، والإكسسوارات تملأ الزوايا. ألوانها تميل إلى المزاج الأصفر، البنفسج والأخضر. والدتها امرأة بدينة قليلاً تلبس جلابية كثيرة التطريز تحمل ألوان البيت كلها، سلمت علينا وذهبت بصوت مرحب: «حياكم الله يا بنات، البيت بيتكم.. عزة، يمه لا تقصرين معهم..».

.. اخترت جلوسي في هذه الكنبات المتفخة بين الأصفر والبنفسج. الأباجورات بنورها الخافت في الزوايا الثلاث، والجدران بلونها البيجي الفاتح توحي به هذه الاصفرارات حولي، والإضاءة تعمد إلى سنح فرصة شرود حفنة أحلام تتقاطع وتتصاعد، الضجيج هناك يبعد ويستحيل رجرجات تتهادى وتسرع كأنما تصطدم بحواف الميناء الخشبي التي تلفق حبال الزوارق في شاليه الحديثي. بحر الشرقية في الخبر والجبيل ما قبل حرب الخليج قبل أن تخضبه شذرات النفط الكريم.، الزوارق الناعسة كثيرة في الخبر والجبيل المدينتين اللتين يؤرخ وجودهما النفط، وبيروت تؤرخها الحروب. عمر حربها بعمرنا، فلم أرها سوى بعد الخراب المجنون فيها: «ما هيئتك مغرومة..» قالت شذا الرسامة اللبنانية لي، وتسمعها صديقتي النحاتة فاتن: «لا تجيين لها سيرة الهيئة.. يا امْعَوْدة..!»، وضحكت أنا وفاتن، واستغربت شذا قصدنا: «هيئة شو..؟، ما عم قلا هيئتك

مغرومة بالرسم تجوزيه..!»، وأستنكر ساخرة: «مين رسام..؟!»، فـ: «شو رسام..؟، الرسم أوعك تشغلي عنوا!».

.. تلك المرأة شذا. الشاحبة اللون، لا تهتم بمكياجها، شعرها كيرلي، ونافر. تعتني بتلاميذها الصغار في محترفها. تفتح شهيتهم على ألوان الحياة، وأنا أشاهدها، ولم أكشف أنني مهملة، في غرفتي لوحات ناقصات عانسات في دار النسيان وعذارى ملغومات. لم أفصح عن شيء، لم أجرؤ، وكان لا بد. كنت أجلس عند ساحة النجمة، وأرقب رسام البورتريهات. شعره الطويل المنسدل، وملامحه الجلية، وأنفه الكبير. عيناه السوداوان مثل حبر شيني يوزع لزبائنه نجوم تلك السماء من جديد على وجوههم. امرأة وفتيان. أطفال وعجوز. ساعات تمر. قلمه لا يبرى سوى مرة أو اثنتين. يشخط على الورقة يطالع مرسومه ويبتسم مرة وأخرى. ينسى وجود أحد، ويجلو روحه في الورقة. أشعر بورطته أن ينقل الواقع، والكاميرا متوفرة..

.. الناس تمر وتقف لبرهات تطالع بكثير من اللطف، والحرج المسبق للذهاب مع إنهم استشعروا بضيق الرسام بوقوفهم فوق رأسه، ورقته، لكن بعضهم يلقي التحية عليه، وآخرون يطلبون وعده أن يرسمهم. تلك الفتاة السورية البدينة جاءته بجرأة ساذجة، تخلط شفتاها الحروف عندما اختلفت

معه على سعر رسم البورتريه، ومشت قائلة: «يا بعي بصاري..!»، فلم يقبض منها شيئاً مثلما فرت الميمات من كلماتها.

... ماذا لو جلست أنا مكانه، ووافقت على أن أرسمها أمام ساحة النجمة كما لو تتحول ساحة الصفاة إلى مكان يجتمع فيه الناس وأرسمهم في الرياض. غير أنني رسامة امرأة، وغير أن الصفاة لا تستقبل سوى الأحمر.

«But two eyes that look at you so close so clear.

Can make you forget the words and confuse

Your thoughts.

Like this everything becomes small even the nights

There in America».

ـ «عايشة صدق سخيفة، ليش صَكّيتيه؟.».

ـ «يا الخي فكّينا من أميركا. أبتصل على زوجي».

ـ «أنا أبي أسمعه زوجي كلمي هناك». مبعدة الجوال عن أذنها.

ـ «ما مليتي من الإنجليزي في الشغل والبيت..؟»

ـ «أف.. بس..!»

ـ «آلو، محمد ترى بتأخر..»

.. تركتها ونهضت لئلا تستمر بطيش تنكيدها. سبقتها إلى البنات أحاطوا محطة Fashion. ثمة عرض لأزياء الربيع. وأسمع: «يا لطيف فظيع..»، «واو كل هذا طول يا بنت الكلب..»، «شوفي يا ويلي شوفي الجسم..»، «كأنهم عارفين مقاسي..»، قالتها أم عزّة وانفجر الكل بالضحك، بعضنا خجل وحاولت أم عزّة أن تسحب خجلنا لسوء تقديرنا، فقالت: «خلاص أنا كدا مبسوطة بشكلي، خايفة الريجيم القاسي يأثر على خفة دمي..»، فأضحكتنا من جديد.

.. سألتني عزة عن عائشة، فأقبلت: «أشوى أنتي هنا..»، استغربت عزة وقالت: «فيه شي..؟!»، «تاركتنا وقاعدة تسمع لي غربي طلعتها لكم..»، التفتت عزة إليّ خافضة صوتها، عارضة عليّ إن كنت أريد الجلوس وحدي في غرفتها، غيرت مجرى الكلام: «ما راح تاكلونا والا بتسوون الريجيم فينا؟!».

.. صحون وكؤوس، سلطات كثيرة وندية. معجنات ومقليات. فطائر ساخنة بالجبن والزعتر. جاتوه الشوكولاته شدني، وأريد أن أهجم عليه تشفياً عن عائشة. كركرات وهمس. تسابقن يحطن الطاولة. أياد تمتد وصحون تفرغ لتملأ صحوناً. مشروبات غازية وعصيرات ترتج وتطيش.

انفجار كركرات متزايدة من هنا، وأصوات السكاكين والشوك هناك. . .

. . سأرجع إلى الصالون الأصفر، معي صحني ومشروبي. لن تلحقني عائشة، فهي لاهية، مع المدعوات وأم عزة كأنما هي صاحبة العزيمة. قدر ما لفزعة التعاون والمساعدة فإن خصلة رائعة فيها تدمرها بلقافتها حين لا تراعي ملكوت من ترسم عزلتها. .

«.. You turn around and see your life like a track

Of a propeller.

But yes, it's life that ends by the didn't think

About it too much».

ـ «شايفة كيف الحياة. . ؟!».

ـ «توني ما شفت. .».

ـ «يا سمورة، أنتي متكيفة ع الآخر. .»

ـ «أحلام وهواجيس. .».

ـ «قولي كوابيس. .».

. . (كوابيس، يا عزة. . ؟!). . هذه اللامبالاة، التطنيش الدائم، واستدراجنا إلى أن الحياة: «ما تستاهل. .» والانشغال بالمكياج وماركات الملابس والجلديات في العقارية وقزاز وعبارات التنفيس: «لازم الواحدة تكون

رايقة..»، وإذا سألتك عن المستقبل واستفزتك عاشتة بمصير الزواج والأطفال حنقت: «يا شيخة، ليش وجع الراس خلينا كذا..». بعد كل هذا: «قولي كوابيس..».

.. يتوفر لعزة الكثير من الأشياء لكنها لا تملك شيئاً ولا يسجنها سوى الملل، وتبديد الوقت بالكسل. ماذا أقول أنا عن نفسي عن حلم الرسم التائه؟. الألوان والريشة حيث أهمل، وتخطيط مينا أن أخلفها، وصعوبة الموافقة عليه من إدارة المستشفى بمنحي فرصة الدراسة إلى أميركا. وتركي. الذي ينحت الهواء في خياله، ويهذب بريد الشمس الذي تكاد تخنقه الوظيفة بدوامها وزملاؤه ذوو السقامات وتحمله إياهم..

.. تركي شهاب لا ألحق به. إقدام لا يكل. إرادة أشعر أنني ضعيفة لا أملك جزءاً منها ـ كما تقول فاتن ـ عندما حدثتها عنه، لكن دائما ما يشج خيوط العنكبوت حولي لأرى شمساً يختارها ليست تلك التي أعرفها. أشعر أنه يعرف قمراً لا يشبه الذي يتبدل حاله كل شهر على طاقة غرفتي. أرتبك عندما تفوح في لحظات حديثه عن عوالم الألوان روائحها، على حسب الطبيعة تمضي، فالأحمر للورد الجوري ولا يشير إليه، مرات يتراءى لها التفاح الأخضر ماء الشجر، لكن النعناع يغلب لساني. الأزرق وجه السماء، لكن الخزامى يثير حواسي..

.. تركي.. اهرب من كل هذا. ليت إن لم تقنع من عيوني أدفعك، بدمي بعيداً لتطير في جوك وتظل الصحارى.

١. كمثل من يخرج من البحر
إلى الشاطىء مبهور الأنفاس،
فيلتفت ليحدق بالمياه الخطيرة..،
..
.. هكذا التفتت روحي الهاربة بعد
لتنظر إلى ذلك الممر..
الذي لا يدع ين الأحياء أحداً.
..
.. بعدما أرحت قليلا جسدي المتعب
استأنفت مسيري على الشاطىء القفر..،
والقدم الثابتة(*) ما تزال أدنى من القدم الأخرى.
..

(*) يرى الشراح، بالرجوع إلى النصوص الفكرية والروحية المعاصرة لدانتي (لدى بونافنتوره، مثلاً) أن القدم الثابتة، بمعنى الثقيلة والمسمرة، هي القدم اليسرى، التي تثقل على الإنسان وعلى اندفاعاته. وتذكر ريسيه بهذا الصدد بتدرج خطو دانتي ووتائره عبر المنازل الثلاثة. لئن كان سيره في «الجحيم» بطيئاً، فإنه يتسارع في «المطهر»، ويكون في «الفردوس» قريباً من الطيران.

.. إذا بي ألمح في بداءة صعودي،
فهدة(**) رشيقة واثبة..
كان يكسوها جلد أرقط..
..
.. ما كانت لتريد أن تخطو من أمامي،
بل كانت تعيق تقدّمي حتى أني
ارتددت على عقبي مراراً لأبتعد..»

(**) Lonza، من الفرنسية القديمة lonce: حيوان بين النمرة والفهدة. يرمز عموماً إلى الشهوانية الفاجرة أو شهوة الجسد المتسلطة.

الناس في الموت لا يسمعون

1

تركي

.. في انتظار شاحب تمر الساعات الثقال، وأرتعش كأنما اللحظة غدت كل حواسي مثل حبة رمل تطمرها حوافر خيل قافلة. كأنما الظلمة في زوايا غرفتي تركيبة قهر عالي التقنية في صعقي.

.. من فعل كل هذا؟.

.. عجز عن المواجهة أمام ضعفي أمام نزال أتوهمني خاسراً فيه..؟.

* * *

.. أجدني واحداً صغيراً في مجتمع هو واحد صغير. في وطن واحداً صغيراً في عالمي..، وهذا الكون الذي لا يسعه مللي يحرك أفلاكه ليوهمني بتغيير ما يلهيني بالانتظار والحسرات المقدودة من روحي كأن كل شيء لم يعد يمكن أن يصير غير ما هو عليه، ولا عدت أشعر بي أو بجسدي..، ولو تعاكس ساعداي على كتفي ليمنعا متحفزاً

ينزُّ هرباً من صدري لم يعد يحتمل جسداً ارتحل دمه وانتظم منه شريانان على ربابة تفز لمسِّ روحٍ فازعة لم تدم لها اختناقات حياة مملة، وكي لا تصير هكذا لتكن حياة صغيرة..!.

2

ـ «شفتي ثناء، يا سميرة..؟».
ـ«لا. أعتقد بإجازة..». (تتظاهر منشغلة بورق..)
ـ «غريبة..!».

.. أخفيت في نفسي حنقاً اختطه انتشاق الخوف وجريانه: «ما قالت شي..».. غابت هكذا!؟. لم تستطع حمل همومها، واختفت.

.. ننشغل بها لأنها جزء منا كأنما هي ركن أساسي مثل أم في أي بيت. لها نكهتها. شعاعة فرح في العمل، لكنها حزينة لا تقاوم شرودها منذ أسابيع، وعندما سألتها: «ما أدري فيكي شي إنتي مو طبيعية!». إنقفض لونها على محاولة الاحتفاظ بابتسامتها الرطبة تضاءلت: «ح أقولك.. بعدين..!».

.. ذهبت إلى مكتب نجلاء..، وعزة أسألهما عنها. شرحت أنها في حالة مؤذية منذ أسبوع لكن لا بد للأمر من زمن معها، ولم يظهر سوى الفترة الأخيرة، ولم أعرف ما بها ظاناً أنني جعلتهما تشاركانني أمر ثناء. مرت عائشة

اللجوجة، وحين بادرتها بالسؤال، قالت: «شكلها انجنت، اللي يشتغل في هالمستشفى ما ينجن، بعدين المرة حالتها غريبة من يوم ما توظفت، وهي مرة تضحك كأنها مهبولة، ومرة تسكت كأن العقل نزل عليها مثل الوحي، أظنها Psycho(*)، لو تستقيل وتجلس في البيت أحسن. بعدين ما هي محتاجة فلوس أهلها بنعمة. شكلها جاية تضيع وقت لا زوج ولا ولد. شوفوا شغلها. تستلم أوراق وترتب ملفات الأطباء في الصناديق. ما عندها شي. يعطونها شغلات عادية. ماشية مع نظام السعودة. بعدين، دايم أشوفها بمكتب عبدالله إذا طلع وقت الغداء جالسة تكلم نفسها وتبتسم هبلا!». تقاطعها عزة، وهي تهز كتفيها ثم تجلس على كرسي: «يمكن تحب يا عايشة..؟»، تتحفز لتنقض: «... المرة خلاص كبرت. إنتي بعقلك تحب إيش؟. أصلاً من راح يحبها، أستغفر الله العظيم..»، تأففت وخرجت حاملاً نظرات نجلاء المحتقنة خلف نقابها.

.. عائشة، كل أسبوع تحصل مشكلة لها. إما مع زوجها، فلا يأتي ليأخذها نهاية الدوام، وإما طفلها مريض لتذرع مكاتب مواعيد العيادات لأجله، ولا بد كل شهر أن تحضر والدتها لموعد مع الطبيب. جسمها صغير ومتشنجة

(*) مضطربة عقلياً.

الحركة. افتعلت خناقة مع فيصل الحبُّوب جداً، والموظف تحت التدريب؛ لأنه أخذ أوراقاً على غفلة من مكتب عبدالله، ولم يكن موجوداً بل كانت تكلم خفية وقت الغداء بعلمها نبَّه المدير عدم استخدام هواتف المكاتب للاتصالات الشخصية، وغطت فعلتها بزحلقتها على فيصل..

- «ها عرفت شي عن ثناء..؟!»
- «يمكن آخذة Sick-leave»
- «سألت تريزا..؟»
- «صح.. بس تريزا من طلعت للغدا ما جت..»
- «لا تشيل هم لو ما صار شي.. بكرة نعرف..».

.. أشعر بشيء يقبض أعصاب جسدي وتغالبه بالنبض ويختفها. تلحظه سميرة، لكنها تتعمد ألا تصعِّده لأنها ابتدأت تلفق غمرة توتر لاحظتها يوم أشاحت راجعة إلى مكتبها، شدت الأوراق إلى صدرها وتوقفت برهة عند منعطف الممر، وحاولت رفع نظارتها ومشت متثاقلة. حاولت أن أرجع لها، لكن صراخ بدر مع أحد المرضى المراجعين لخبطني وهممت هروباً ممَّ أنا فيه، ولو لحظات.

.. إنه يمنعه من استخدام باب الدخول لأنها منطقة عمل يردد كلمات المدير الذي يمنع الموظفين من الخروج لأجل التدخين بينما هو أول الخارجين، اقتربت..

ـ «من قال أنا مريض، أنا مرافق..»

ـ «إيه بس لو تسمح خلك في الانتظار..».

ـ «أفا(*)، كذا تتعاملون..، وين المدير..؟»

ـ «ليش..؟»

ـ «أبشتكي..»

.. رأيت بدر مثل فأرة انتفضت فرائصها، لكنها لن تقاوم أكثر من ذلك. أخذت الرجل على جانب بعد أن طلبت من بدر ترك المسألة لي.

.. كل ما في الأمر أنه يسأل عن أي دور عيادة تخطيط القلب، وأخبرته عنها مشيراً إلى المصعد الذي يوصله إليها.

.. عدت أسأل بدر عن تريزا ما إن رجعت أم لا..؟. ذهب رافعا يده علامة استهزاء وقال: «ما لقيت تسألني إلا عن هالفنسا..».

* * *

.. تمشي ديبورا مسرعة مثل بقرة تخض لبنها. تلقي التحية خاطفة. لم تسنح حالة العجلة التي فيها أن أسألها. إنما فجأة توقفت، وأدارت جسمها المترهل بحركة استعراضية بوجه مملوء بالعجب والتساؤل..

- «You look sad, Turki?»

(*) أفا: كلمة عتب وتحسر.

.. شكرتها، وزادت:

- «Are you in love?»

.. ابتسمت متغصباً، فسحبتني من يدي إلى Coffee-room، وأجلستني لتقول.

- «I knew that not easy».

- «What are you talking about?»

- «To be with habibi».

- «Habibi?

- «Yes, You'll never admit for any body even me!»

-...?!

: «Don't be shy. Just tell me about him. I'll help you!»

.. بكلامها لبختتني، ونهضت سريعاً ما إن خطفت قدما تريزا الممر، وتركت ديبورا، والموضوع الذي انفتح بغير أوانه. يا للعانتها..!

.. دخلت تريزا ولم أرها في مكتبها. ذهبت إلى الممر، لم تكن هناك، لم أجدها. ها هو بدر مرة ثانية بوجهي سأسأله عنها: «يا خي، فكنا..».

.. من بعيد: «تركي، تعال لقيتها..» نظر إليَّ بدر مستغرباً، ثم توجه بياغت سميرة بتساؤله: «حتى انتي تدورين تريزا، وش قصتكم..؟».

.. تركناها مشينا صوب الممر الخلفي: «اتطمن كلمت

عليها في البيت، قالت أختها تعبانة شوي وإنها الحين نايمة..». تعجبت: «نايمة..؟. الساعة خمس العصر.»، «لا..، قالت لي أختها إنها أخذت إبرة مهدئة ونامت كان الطبيب عندها في البيت..» وغابت سميرة أيضاً.

3

سميرة

.. أنا مرتبكة قدر ذلك الخوف الذي يملأ تركي على ثناء. إنه خوفنا جميعاً عليها كأنما هي طفلتنا لا امرأة الخريف كله.

.. ربما ثناء مريضة، وتتألم من نفسها، ولا تفصح.

.. كلما أرى الخوف بوجه تركي أشعر أن آلامها تفوقه. ألهذه الدرجة تصل شفافية تركي..؟!. أي نوع من المخلوقات هو..؟. لا تقرب له، ولم يعرفها سوى في العمل. لم أرهما يتحدثان كثيراً بل حتى جلوسه في الحديقة معها مصادفة لم يكن من تدبير أحدهما على أنهما لا يحتفلان سوى، أن يكون هو في الصمت والانطواء على ذاته متأملاً ومعيداً تجديد صلته بالكون، وهي مثقلة بما لا تفصح عنه، بل لا تستطيع أن تفصحه. كيف جعلتني، يا تركي، أيضا أهتم بها..؟..

.. غريب هذا الشعور. أترى يراها تركي طفلة؟. ألهذا انشغل بشؤونها الصغيرة كما لو كان أباً كبيراً في عمر صغير، وهي صغيرة في عمر كبير..؟.

* * *

ـ «ها يا سميرة، امتى راح ترسميني..؟».

ـ «خلاص حددي يوم وأنا جاهزة..».

ـ «يعني راح ترسميني جد..؟».

ـ «أكيد، اختاري لبس حلو.. كذا»..

ـ «لا، أنا أبغى أكون طبيعية..».

* * *

.. أنت طبيعية.. ، يا ثناء.

.. أنت الطبيعة، وأين لو تدرين..؟. كل الطبيعة أن يكون الإنسان طفلاً. يتعلم الأشياء دهشة أول مرة، فيسأل عن المألوف جديداً عليه. مثلما كنت أتعجب وأنا صغيرة: «أنا.. ناس». ما هذه الفاكهة التي أطلبها باسم الناس: «أنا.. ناس». كما ترجمها تركي مرة ساخراً: «I am people». تضاحكنا متعجبين بطفولة وعرفت ديبورا لأن الكلمة مستخدمة بالفرنسية، فقالت بلكنة فيكتورية.

- «We call it in English (Pineapple)»

.. ، قال تركي: «Paine-apple».

توعدتنا بالعقاب لعبثنا بالإنجليزية، وخرجت. ردّد تركي الكلمة ضاغطاً على الأولى، ونظر مبتسماً حينها كأنما يرصد يوماً سيأتي عن ألم التفاح..، ألم ثناه الذي لا يرتاح.



تركي

هل يخفي كلام سميرة شيئاً..؟.
أشعر برغبة أن أذهب إلى بيت ثناء لأطمئن بنفسي عليها، لكن بأي صفة وصيغة أذهب..؟..

ـ «أيوه.. مين؟..»
ـ «زميلها في العمل..»

.. لا، سيتساءلون عن عمري: «مين هادا يا ثناء..؟».. لا!، لكن لا يكونوا مثل رد أي أحد من أهل نجد: «تدخل أجنبي في البيت بَعَدْ.. بَعَدْ..؟!»، لكنني من نجد، والمسألة زيارة، لا لن يكونوا أهل الحجاز مثلهم، لكن ماذا لو سمعت: «مين هادا الشروقي(*)..؟!».

(*) تسمية الحجازيين للنجدي.

ـ «ما أدري فيك شي إنتي مو طبيعية؟!».

ـ «ح أقولك.. بعدين!».

إنك نائمة. الأحلام تسرق الأطفال مثلك، أيتها الكبيرة الصغيرة!.

أشعر أنك مثل جمرة تشتد لفحات رياح السموم تشعلك، وتبدد رمادك، ونحن الواقفون على مبعدة من جنون، ومقربة من حلم.

.. إنني لا أقبض بيدي شيئاً من هذا الرماد مثل الرمال التائهة في تقلباتها في الصحارى. فتات صغير ينتشر. كما الناس، هنا، إن جمعوا الرمال في كيس ثقل، ولم يتحرك ورفض أن يتزحزح.. ، وإن خرقت هذه الأكياس انبجدت مرة بعري فادح، وأخرى بشتات أرعن.

.. الناس رمال يتنازعها قبض رياح وبعض غيث شحيح.

.. الناس، هنا، يا ثناء، لم يعرفوا البحر الذي وصلت عنده عائلتك من ضفاف بعيدة، بل هرب كثير صوب الشرق، فأشرقت حظوظهم في البصرة وبومبي عبر الكويت/ نجد البحرية، والبحرين/ أوال/ دلمون مقبرة الآلهة..

.. ما الذي زحلقكم إلى الرمال من البحر.. ، يا ثناء..؟.

.. تريزا وعدتني أن تقول شيئاً في وقت لاحق، عندما حان وقفنا في الجهة الغربية المحاذية لقسم الأرشيف، وحين رأت أحمد الموظف الأردني، امتعضت، وقالت:

- «I hate him, the old-women thief!»

.. لم تكمل وذهبت إلى مكتبها، ولم أذكّرها أنها نسيت ماذا تريد أن تقول لي؟.

5

سميرة

.. منذ أيام، والسماء فقدَتْ زُرْقَتها. حالة تضبُّب تَمْلأ أركانها، وغبارٌ جيريٌّ يتمشّى في الشوارع. البرودة تتضاءل في النهار وتعاود أنفاسها في المساء.

.. غُبارٌ كثيفٌ، وثقيلُ العصف.

.. هذه الرياض، يا سميرة!.. «لو أنك ما توظَّفتي في المستشفى كان انتقلنا إلى الخبر، ولا قعدنا هنا». الجملة التي أرجم بها من أمي مرة بالكلام وساعات بالنظر.

* * *

.. هل فقدْتُ نفسي في هذه الوظيفة؟.

.. صمَّمْت على الدراسة في معهد الإدارة العامة، معقل العلمانية ـ عندما علقت خالتي موضي ـ؛ لأن شهاداته توفر عملاً لا جامعة الإمام التي هددتني بالفصل إن لم أحفظ جزءاً من القرآن كل فصل، وبشهادتها سوف ألاحق النساء

كوني امرأة، فيما لا يستطيع أن يقبله من رجل في عباءاتهن وصلاتهن ومحيضهن.. وحقوق الزوج في السرير، طاعته وتلبية ظلاله!.

.. نلت الدبلوم في إدارة المستشفيات مع لغة إنجليزية ممتازة، وتوظفت، عندما رأت جديتي وحرصي بالعمل، قررت المسز مينا أن تلحقني بدورة متقدّمة لأنال شهادة أخرى وترقية.. لكن ماذا..؟ ألا يكفي أهلي أنني مصممة على العمل، فيما كثير من قريباتي من غير هدف في الوظيفة، فأحقق ذاتي لا؛ «قليلة أدب تشتغل مع الرجال..» من فم خالتي في الهاتف لأمي، وهي تحاول الدفاع عني بصمتها!.

.. حلم الرسامة المدفون في داخل نفسي. أوقظه تركي فجأة، لكنه حلم تحوّل إلى جثة أريد التخلّص منها وأعجز لأنني أعاني لحظتها، ولا أستطيع على أن أهلي يريدون التخلّص من الرياض أكثر من قدرتي على إطاحة هذه الجثة، ربما تغيير نظرتي لهذه الجثة ما يتيح لأهلي تحقيق مرادهم!.

.. لم يعرف الناسُ الرياضَ أنها بعض ضواح: غبيرة، منفوحة وعليشة. كذلك بعض قرى: الغصيبة وعرقة.. كلها أسماء مؤنثة وقيل إن غبيرة ومنفوحة زوجتَي رجلٍ فصلهما في ضاحيتين وتسمَّتا باسم سكن كل واحدة فيها منهما. لكن

عليشة..، هل هي أليسا الأميرة الفينيقية في قرطاج/ القرية الجديدة..؟. من شرق المتوسط إلى إحدى مناراته لم يدر ببال حنَّ ـ بعل (أو هاني بعل كما يخطىء سليمو اللسان من العجم) مسمى القرية الكونية بدهان العولمة..!

.. كلما تحدَّث أهلي بأمنية الانتقال إلى الخبر. أشعر أن جبيني اصطدم بجبال العارض... الرياض من أين أتى هذا الاسم؟. قالت مرة لنا معلّمة الجغرافيا المصرية: «دِيًّا معناها جمع روضة، يا بنات انتباه..!».

.. أين الروضات، يا أَبلَةُ سامية..؟. أين هُنَّ..؟، والمدينة بنيت على أنقاض قرى ومزارع لم يتجاوز طول النبت فيها ركبَتيا بل الدم المراق فاق وغابت وجوه.

.. «أنشُدُ السَّلامَةَ والنَّعِمَ.. يا روضا..».

.. إنها الآلهة الأنثى لأهل الشمال نقلتها من قوم ثمود استغاثة أهل حائل القدامى:

«يا روضا، امنحي العَوْنَ لِمَنْ يَعْمَل..».

.. إنها كما العُزَّى كوكب الجمال، الصباح والحسن لأهل مكة. كانت إلّهة على شكل طفلة يسعفونها بالقرابين لئلا يُسْرَق الصَّباح منهم، ولا يأتي!.

..: «يا روضا، امْنَحِينا العَوْنَ..».

.. طلب رضاها الآشوريون زماناً، وصلّى لها السِّرْيَان.. :

«يا نَجْمَةَ الصُّبْحِ..
شِعِّي في مَعَابِدِنا..!»

.. لم يَقُلْ في كنائسنا أو مساجدنا إنها مجامع المؤمنين.

.. ربما استنجد بها أهل القرى من عارضٍ شرٍّ أو جوع أو نهْبِ غارة. كل واحد يطلب رضا ربَّة الحُسْن والصَّباح، وما إن يناله يدهسها مثل كل امرأة تتلظّى بالدهس هنا..

.. أريد، فعلاً، تَرْكَ الوظيفة، وعرضٍ دورة الوثائق من مينا الطيبة. فأذهب إلى الخبر، وأعيد التقائي بصديقتي فاتن النحّاتة البحرينية. عشنا فترات لا تنسى وظللنا نعِدُ بعْضَنا أن نعمل معاً. لكنني انتقلت مع والدي لعرض اضطر إليه هنا. لعلّني أرى الحياة هناك تحملني، فأجد نفسي التي ربما صدَّقتُ توهُّمي بأنها جثة لن يحركها بخور ولا ماء..، وأجعل أمي تكسر أسطوانتها الدائرة عليّ: «لَوْ أَنَّكْ ما توظَّفْتي..».

.. أيجدي إذا ما ذهبت إلى الخبر..، وتركي سوف يلتحق بمؤسسة الفن الراقي، ويقبل عرض منحتهم ليدرس فن أوجين ديلاكروا المجنون به في فرنسا كما قالت ابنة خالته

ندى عندما حضرت وتعرفت إليها في حفلة عيد ميلاد أخته الصغيرة، فلعل وجه السماء يرغو بصفائه.

.. وماذا عن ثناء..؟. أستكون قربانَ هجرتِنا إلى روضا بوعودها أم الرياض بغبارها؟.

.. روضا.. آتي أو أنحتك في صورة لن تكون سوق رغبة لأحد من الرجال..

.. أريد أن أمشي حافية إلى معبد «رَوَافة» في الحِجْر قبل أن يسكنوها مقبرة قصر البنت. سأطلب من الملك الحارث الرابع.. أن يملأ المجامر بخورَ السند..، وينادي بأهل الحجر إلى المعبد، فيأتون مجموعات بمسوح الجنائز، وبغفلة الطهاروت(*) القديمة ونية الغِطَاس. يحضر تركي سادناً برائحة الندى الخمرية. نقف لصلاة الألوان، لأن ثناء في رقدتها الأخيرة.

..: ايا روضا..، امنحيها العون..

.. أيُتُها الآلِهَةُ الصُّغيْرَةُ أنتِ لَنا..

.. أنتِ لثناء مِنْ بعْدِنا..، وثناءُ جِئْنَا لِرِضَاكِ..؟!.

.. فتُطوَى السَّجَّادة وتتغضَّن الرُّمْلات الكثيرة وتتطابق

(*) باللفظ العبراني: اللهجة الكنعانية بالآرامية.

محتكة ببعضها ومتدحْرِجة صوب تفَّاحةٍ شهيَّةٍ، لكن مُعطَّلة بقُرْبها فكُّ أسنانٍ جامد طواه السُّوس والاصفرار لجُمْجُمةٍ مستلقية وغارقة في فضاء أبدي خارج الذاكرة وعيونها.

6



تركي

.. وجهُ سميرة كلّه جرحٌ خدِر.

.. وجوهُ الآخرين ليست وجوهاً. في القسْم عندنا تنطبع كلمات عزاء باردة، كأنما رائحة الهيل من القهوة تطهِّر الكلمات من أنفاسهم المدَّعية.

.. الممرات في المستشفى لا أحتملها. الموظفون والموظفات. الزملاء والزميلات لا أراهم. رائحة الأدوية تسفَعُنا بالكيمياء على جلودنا الموتورة بحرارة الصحارى وغبار الأمكنة. الحساسية تقرُص مِعصَميّ وذراعيّ وصَدْري كلها تزيد.

.. وجهُ سميرة كلُّه جرحٌ حزين. لم تعد تحكي عن مينا ولا عرْضَ الدورة أو أخبارها.

.. سميرة تحمل أوراقاً وردية شفَّافة تُخفيها بالتفاف ذراعيها. يمازحها عبد اللّه: «إيه اللّه لنا، يلّي عندهم إجازات وحِنّا ما عندنا..»، تهمله ممتعضة وتسير. إذ ما

عادت تجلس في مكتبها كثيراً، ألتقيها عند بناية شؤون الموظفين بعد الظهر إن رأتني تتلهّى بالحَكْي مع بعض الموظفات اللواتي يمرُنَّ صدفة، ولم تكن معهن. ترتبك باتساع وجهها للجُرْح والحزن، وتنظر إليَّ، فأغافِلُها مُكْمِلاً طريقي.

7

سميرة

.. ليست الوجوه إلا مرايا.

.. هنا وجوه تحفظ زجاجها وأخرى تكسره. وهناك أجساد لا وجوه لها.

.. ثمة وجوه لا تقول شيئاً إلا بعيونها وأخرى بشفاهها. وماذا أقول عن وجهي-أنا- أو وجه ثناء. إنهما مرآتان عاطلتان. وماذا عن وجوه الأخريات، وجه عائشة، أو عزّة، أو نجلاء كلها خلف النقابات. إنها ليست وجوهاً بل عيون تحتقن المياه والدماء فيها حتى لا يبقى لأية زاوية ملمح أو إيماءة.

.. ولكن كيف هي عند وجوه تحمل كل عصافيرها وحكاياتها. شموسها وأقمارها، مثل وجه مينا، أو ديبورا، أو تريزا، أو ليزلي؟

.. وجوه الرجال والشباب أيضاً مكشوفة على عراء وجرود. إنها وجوه عارية من وجودها. إنها وجوه لا تقول

شيئاً أيضاً، فالعيون تختبئ بنظرات طبية أو شمسية أو بجفونها اللحمية أو الشفافة اللامرئية. إنها تحتمي من فضيحتها. أتراها عيون موتى؟

.. إن وجوههم عاطلة لا تعبر إلا بأياديهم وأصابعها. هكذا هي وجوه الرجال والشباب كفوف وأصابع!

.. قليلة تلك الوجوه التي تحتفظ بطفولتها وبراءتها. إنها ليست مثل الحصى والأحجار التي توهمنا بأنها عجماء، ولكن كل الكلام لها!

.. وأين الوجوه، أيتها الحصى والأحجار؟. لا وجوه هنا وهناك!

.. الناس في الرياض ينتهون إلى عيون محتقنة وشفاه مخبونة، عند النساء، ونظّارات عدساتها مداميك وأياد تحملها الأصابع، عند الرجال!

.. إنها وجوه تكسر عصاي وخيالها!

* * *

.. الوجوه، في غزل الشوارع والأسواق والمراكز، خيام سوداء، بعضها فراشات وأخرى وطاويط، تتكدس الأجساد فيها. هواجسها وشهواتها، ولا تنفُذ أنفاسها إلا من فتحتي نقاب أو فُرَج الطّرْحَة، فعلامتها عطر أو إسوارة، وهناك خيام بيض، وربما صفر ونباتية!، متوّجة رؤوسها بالأحمر حيناً

وبالأبيض أحياناً، ومهما بدا الوجه فلا يتحدَّث إلا بالأيادي والأصابع، فعلامتها خاتم أو مفتاح أو سيجارة. .

.. وجه الشاب منهم، أو الرجل أيضاً، مصيدة ورتبة بين صحبه، وربما مصيدة لهم أيضاً، يحتل مقعد السائق أو بجانبه في السيارة، وربما يُظلِّم رأس الكلام والأرقام. .

.. في مرَّة، ارتبك الوجه أمام خيمة من الخيام حتى كشف صوتها مساحة الزمن فيها.

- «تبون الرقم، يا حلوة!»

- «انطم ما عندك أهل، استح على وجهك!»

.. إنها وجوه ملونة ومصبوغة لا قيمة لها إلا في فاترينة محل تصوير فوتوغرافي أو غلاف مجلة أو واجهة موقع على النتْ!

.. وإذا السيارات ظُلِّلَتْ، والوجوه انطفأت. فلا شيء يبقى سوى الصوت.

.. ربما صارت الوجوه أصواتاً، فلعلها خرساء لا وجه لها!

.. صوت المسجِّل، وصوت المنبِّه، وصوت الحناجر المبهم، أصوات صغيرة وكبيرة، وعالية ومنخفضة ربما مخنوقة ومعدومة. لا أسمعها ولا تسمعني كما لا أراها ولا تراني!

.. الآن، تبدلت أشياء كثيرة، فقد صار الشَّعْر وجهاً بقدر

ما يملأ العوارض أو السَّكسُوكَة أو الخنجر أو الشارب أو فروة الرأس، وصارت الجلود وجوهاً بقدر ما تتخذ وجه الصنادل، والجِزَم، والأبوات، والحِذْيَان..

.. وصارت الجَوَّالات الوجوه الجديدة. إننا لم نعد وجوهاً من عظم ولحم بل غدونا أرقاماً ورموزاً منحوتة في الفضاء وعرائه. وجوه لا ناعمة ولا مرضية، ولا خاسئة ولا حسيرة. وجوه بائدة لا تملك ألوانها ولا تكسرها. لا تكبت ملامحها ولا تعتقها..

إلا وجه تركي!

8

.. وجسد تركي بدا في إرادة نشطة، لكنه قدر تضاعف صمته. ينخرط في كبت مشاعر مختلطة ومحتقنة.

.. جسد مكتظ بما لا يفصح عنه. هذه الحالة التي أنا وهو بها. ربما كثيرون. ربما كثيرات. لم تعد تريحني.

.. ما الذي يريحنا..؟. ما الذي يريحه..؟.

.. وأنا لم أره مرة يخص واحدة باهتمام..؟.

.. أتراه في الضفة الأخرى التي أهرب من مجهولها أنا وفاتن سابقاً، وأوهمني: «لا، وش لون كذا...!؟، أنا ليش كذا..؟!».

.. لا بد أن هذا الوضع لا يناسبنا، بل ضد طبيعتنا وإن كان يخالف كافة الناس الملفلفين بالنفاق والكذب ونسيان فردانيتهم. هذا الحال سيقضي علي وعليه، بل على غيرنا.

.. ما مصير من يعبد هذه التقاليد، ويخضع بقدرية للأعراف؟. كيف سينظر إلى نفسه يوماً إذا خسر ما فيها..؟.

،يا مخلصي..،

المنقذ نفسي لا تُعْرِض عني أنا عبدتك..،

يا من له الرحمة التي لا تدرك..»

* * *

.. هل قالت له تريزا عما فعله أحمد مع ثناء، التهبا عشقاً وتواعدا على كل شيء، ثم بعد شهور وعدها بالهدية، أراها سيارته الجديدة، وشكرها لمساعدته بالفلوس التي طلبها. وعد أن يشتري شقة في عمان من أجلهما..

.. سقطت في نفسها أنواء السماء التي يتبجح أن يهديها إياها عقداً من الخيانة، ودرباً من الأوجاع أنهك ما تبقى منها بعد صدمة وفاة زوجها الذي مات يوم انتشر الغاز وخنقه مكتشفين في حضنه سواها..

9

.. كل شيء له لون ينتهي به.

.. بينما كل هذه التوالي من آلام وأوجاع، والاعتلال بالهواجس فيها، وحبسها بالصمت هي ألغام فيك ما إن يمسها الآخرون.. تقبَّلْ نوايا انفجاراتها.

.. تقبل هذه الألوان النارية، وشظايا الأرواح..!.

.. هل تخلف غير الرماد الذي سيطلع منه أحدنا جديداً في يوم آت أو اعتل دوره في طابور الحظوظ..؟.

.. وأنا أقف على سماء تبعد بي كلما تحركت فيها، أنتقل عن المدينة ولا أصغي إلا لنحيب الجثث. إنها أرقام ولا ملامح أو شذرات. إذ أنا سأكون رقماً. سميرة ستكون رقماً آخر. ثناء صارت رقماً بعيداً..

١.. في الأرض..

والناس يتصوعون على الأرجوان بالموت

لا تفتح النوافذ لا تقلب الورقة

لا تسأل الأطفال لا تضع الألوان في الآنية

آه لا تصرخ..

* * *

الأرجوان سيد الطبيعة..
بريده يأتي ولا يعود..
آه تصرخ الأرض في الأرض تصرخ
والأرجوان إصبع في الزناد كعب في الكتف..،
واندفاق يوزع الرسائل/ تصرخ الأرض آه
والناس في الموت لا يسمعون..»(*)
لا يسمعون..
ـ اح أقولك.. بعدين..!؟.

* * *

(*) للشاعر قاسم حداد.

حدوسُ زَهرةِ الأنفاس

1

تركي

ـ «إش معنى السكر قبل القهوة.؟»

.. طالعته بأجفان مثقلة بجبس الزفرات. استدرك، وأعاد سؤاله بعد أن صبَّح بالخير.

ـ «إش معنى؟. أكيد مسألة صحية!».

.. لم يترك لي الحديث. كأنما هو مفوض بالكلام عني. بينما انفراج وجهي بابتسامة سمحت له بإكمال حديثه الجاد المتماسك العفوية. غير أنها زفرة لم تطق حبسها.

ـ «أهنيك..».

.. تكاثر الموظفون والموظفات على فتحة محل دانكن دوناتس/ Dunkin dounat's، استل من مرفقي الجريدة، من قبيل المساعدة، ومشى بي. إنه اقتياد عفوي لا اختيار مني حيث مقعد هناك على صدر حوض زهيرات خلفنا.

.. الأيادي تتنازع الدونات بأنواعها المدهون بكريما

الشوكولا، الفانيليا والكرز. بعضهن يأخذن كثيراً من الحلويات، وآخريات مثلجاً/ Ice-cream من كون زون/ Cone zone فطوراً. بعض يمر ويقف ليدخن سيجارة بوجه لم تترك له نجمات الليل فسحة مزاج معتدل، وآخرون يكبتون دخان قهواتهم ويجرونه إلى مكاتبهم..

.. إنه يشرب قهوته بهدوء. أُقرِّب إليَّ كوب قهوتي واضعاً منديلاً حوله منبهاً لحرارته، واستأذن ليتصفّح الجريدة. الحاجة إلى الحنان أو أن يرفرف به على سواه تنضح على طرف عينه حيث أتملى جانب وجهه راشفاً قهوتي قبل مضي ثوانٍ. التفت. ارتبكت قليلاً، وقبل أن أشيح بوجهي رجع بوجهه إلى الجريدة. لم يتكلم، ولم يدعني. رحت في زوبعة من الحيرات. ما الداعي لأن يستبقيني معه؛ فكرت أن أنهض هكذا بكل رعونة وأذهب. إنما لطفه معي حتى جلوسنا هذه اللحظة ردني، وغريب إذ لم يطلب مني كلمة. بذر بدمي فضولاً، لكنه هو الذي تكلم..

ـ «كيف الشغل في المستشفى..؟»

ـ «ماشي..»

.. ما كان لي أن أتردد، ولا كان له أن يسبقني، إنما هذه الحالة البالهة التي تملكتني لديه ثم باغته باختلاسي نظرة إلى شارته المعلقة/ Badge المختلفة عن التي أحمل. لم أر

اسمه بل عمله: «عارض مشارك». استأذن لينهض ودعاني لأطل على ساحة المعرض في الجهة التي خلفنا من النادي الاجتماعي الذي نحن فيه، والذي يشمل مطاعم كودو وبوفيه مفتوح، صالة بولينج وتحوي طاولات سنوكر، محال إلكترونيات وهدايا وسوبر ماركت.

شكرته بامتنان، وشيء في نفسي يمضي بعنفوان..

ـ «لازم نشوف بعض، يا تركي».

.. بهتي أنه مثلي أيضاً اختلس النظر مسبقاً. عرف اسمي وها هو ناداني به أمام كل الآتين والذاهبين، الواقفين والمنتظرين. رددت عليه لأتخفى بمغالبة تعجبي..

ـ «.. آكيد..»

ـ «بتتغدى سوا لا تنسَ..!»

* * *

.. من هذا الذي يعرف اسمي لا بل يرفع الكلافة كلها..؟. يعدني كأننا صديقان بل أشد، من هذا..؟.

.. أيتها اللحظة الصباحية!، يا مؤنسة القهوة ودخانها، يا جريدتي، هل تنسمت حركة دمائه وهو يحملك..؟

. ما الذي أبقاه عليك..؟.

.. أيتها اللحظة الصباحية!، من أصعدك سلم دهشتي..؟.

.. أخرج بسرعة أدل ممشاي، ولا أدرك أنني عائد إلى المكتب، سرعتي تلتقط على جانبي عيني صوراً مهتزة ومتقلبة لمن أتعداهم وأتعداهن. بنايات الحجر والزجاج المظلّل حتى البرودة المركزة ورائحة المستشفى. ألوان ملابس الموظفين النيلية..، الخضراء.. والبيضاء. صور متتالية خطفاً، بعضهن السواد يعتمرها أو الاحمرار..

.. كيف جئت.. أيتها اللحظة الصباحية!؟.

2

.. صافرات الإنذار تتقاطر في أذني، كل صدى يحمل صرخات أمي لتجمعنا أنا وأخواتي البنات..، فالشظايا الباقية في الذهن إنما الواقع رمَّمها وأخفاها..

.. الرجل الأسود المفتول العضل والطويل ذو الشفاه الغليظة الذي يماشي خطواتي راجعاً إلى البيت عندما كنت أصلي الفجر وحينها نهرني والدي ولم يفعل له شيئاً. إنما هذه المشاهد بقيت مهددة بالنسيان الذي تجاهده تساؤلاتي..

.. تتموج اللحظة الصباحية التي مرت عليَّ اليوم بهدوء كان فيه الصباح ونسيم منفوح بالمسرة. عفوية ذلك الشاب الملون بصفرة أشعة الشمس. له ملامح شمالية وشهامة تبدى على وجهه كله..، وحمله للجريدة عندما كدت أن أوقع مني كوب القهوة حيث انسلع ما إن التفَّ إصبعي على مقبضه الساخن، ودعوته للغداء التي لم أذهب إليها لأنني أردت كسب ساعة الغداء لتبكير خروجي لأنني سأرتب نفسي لمقابلة المسيو ميرو في مؤسسة الفن الراقي كما نبهتني بحزم ندى

التي سعت لي به من بعد إلحاحات. كأنما هو النداء الأخير.

.. الصافرات تتصادى وهلع أمي يخف وتزفر على انقباض وحيرة، لكنه الاطمئنان الذي تمنحنا إياه يسرح كل رجفة تطوقنا في أي لحظة تنفعل فيها الصافرات وتظهر التوجيهات التلفزيونية لتصعيد حالة الطوارىء؛ تبدر من أمي بعض مزحات: «استلجّن(*) ما غير يَلْعِن(**)..». تتضاحك. أحد يسكن حضنها وآخر على جانبها وهناك من مستلق على جانبه، يطالعها بعد أن تشد أحدنا من طرف ساعده وأخرى من طرف ملابسها..: «اهجدن..؟. تقل دجاج فجعهن ديك..». دوماً إذا تكلمت بهذه التعابير واللكنة بلغاتها تستحضرها صورة جدتها التي لا زالت تجاهد السماء بالخرف والذكريات، لكن الصافرات يغبن في الصمت..، الصمت الملتهب الذي ينز من نظرة إبراهيم، عرفت اسمه من منظّم العرض أحد منسوبي المستشفى، المليئة بالعتب المغضوب عليه أو منه لعدم رؤيتي ساعة الغداء.. هل يعرف حين عرض ذلك عن موعد مجيئي..؟، ثم لماذا هذه التعابير في وجهه..؟.

(*) ضججن.

(**) صحن بكاء مسموعاً.

- «ما اتفقت معك نتغدى..؟»
- «إلا بس..»
- «بس إيش ما لك عذر..»
«طيب اسمع..»
«اسمع إيش مو..»
- «اشي يخص حياتي..»
- «أنا حياتك..»

.. ارتعشت وأنا أواجه عاصفة لا تشبه، وتلاحق انفعاله ثم كلمته: «أنا حياتك..»، فاستدرك بصرامة: «.. ما تهمني إذا ما تحترم مواعيدك.». حاولت أن أسدل هدوءه ليسامحني اعتقادي أن ما حدث صباح أمس مجاملة بوعد مفتوح لا يستحق كل هذا الهيجان. لم ينظر إلى وجهي، وأشعل سيجارة زافراً حنقه دخاناً تحلق..

- «اليوم بتكرر المسألة..؟»
- «لا، وعد..».
- «وعد..؟»

«في ليلة ما تهجر.. وعد..
في ليلة ما تغدر.. وعد..
أبطفي قمرنا..
وأمحي صورنا..

وأنكر بعد.. هوانا

يا حبيبي..

بشوفك بتبعد في عتم الطريق..

وتوقد ما بيني وبينك حريق..»

.. حريق (اتصالات فائتة) في جوالي تخلّف جمرات تجاهلي لكل رناتها من جواله أو جوالات من هم بجانبه ليوقعني بالرد عليه أو رسائل الجوال:

«من..؟. أتمنى ترد، يا كلي..»

..

«من..؟: مالي غيرك يا أغلى الناس..»

..

«من..؟: على فكرة هذا رقم جوالي الجديد. احفظ الرقم.

المخلص ناصر».

..

«من..؟: رد يا جميل والا كل ذا تغلي؟

أنا ناصر»

..

.. دخان الاتصالات هذا يحاصرني ويخنقني مثلما الكيماويات السامة التي تندلق في الهواء على مثار حساسيتي،

فلم أحتفظ برقمه، ولم أنو على وشك أن أقع وأرد عليه لفخاخ جهل الرقم إذا ما اتصل..

.. «ما فيه فايدة..». أصبحت أملأ صوتي بها ويعلو: «ما فيه فايدة».

.. إذا أراد الإنسان أن يخلق مستقبله، مُفترضٌ عليه حَرْقَ بائدات ماضيه كلها، وسيبقى ما نتعلم، إذ نفسح لأنفسنا فرصة تعلم أخرى بتلوينات وتشكيلات أخرى.

.. ما الذي يجبرنا على تدجين الذاكرة وحرمانها من فقوسات الخيال. لا بد من نسيان. لما لا..؟.

.. إن هذا النسيان الذي سيبقى ويذر للذاكرة غمرة في التصور والأحلام..

* * *

ـ «صدمنا بجدار، يا ناصر..».

.. لم يتقوس حاجباه بل شفتاه. ينظر إليّ كأن ما قلت رمزاً. غدت الحروف التي أعرفها غير التي يعرف والحياة التي أتوقها لا تتوفر عناصر وجوده فيها.

.. أراه يريد أن يفعل قبل أن يشعر.

.. ألا يفهم العالم أم يتلقاه سماعاً دون شعور؟. ربما لا يسنح لعقله فهم عبارتي التي احتقنت تغلي في تكوين دمائي. نهضت ليلتها بجسد صريع لذة عرجاء بين ذراعيه المنفلتتين

بعد أن خار كما ثور اعتط. ما عرفت حقاً يسندني معه، ولا واجباً احتاط به.

.. علاقة صدئت.

.. الغبار، الحرارة والمطر الضال طريقه، عناصر تمكن الصدأ من كل شيء. إذ ما من أحد ليحول الفجيعة عن الصحراء، ولا أي تقليم لأنين أخرس حين يفتل بين وتر ربابة وقوسها. إنما الترسانة المتعاظمة والمتراخية مثل جسم ديناصور بجلد أكرد ولا يمس. هذه الترسانة بإسمنتها من عمارات، بنايات، فلل وقصور.. بإسفلتها من شوارع، طرقات، جسور وأنفاق على وجه الرياض ما يستعير حياة كتمت وجه الصحراء المتغضنة بشهيق ضئيل النفس ونبض يخرطه كل ضوء من نيون يبصق بالعين أشعته ومن صوت بواري السيارات الأميركية الـ/ Ford، الـ/ G.M.C، والـ/ Chevrolet.. الصافرة حيناً والزاعقة أحياناً أصوات نحاسيات سرقت من أصوات زنوج سيقوا بالقيد إلى أرض وعود الدولار وتخلصت منهم السفن في جزر القارة الجديدة يوم راهنت الأمم على مبدأ إيقاف النخاسة..

.. صوت الترمبون(*) يتلظى في قاموس دراما الغبار وضلال المطر..

(*) آلة نفخ نحاسية.

أتسمعني.. يا ناصر.. «صدمنا بجدار»..؟..

أتفهمني إن سمعت..، لن أعود..؟..

.. هذا الجدار ليس يشبه، أو كما كان بطائل الحماية كما هي في مثال سور الصين، ولا معرض للهدم جراء غبار رجل فصل الشعب عن نفسه كما في جدار برلين. ربما تعرف جبال العارض.. طويق الذي احتمى به، لم تعوج أخلاقهم. عاشوا زمناً وساندوا من جاهد لخرابهم.. وتركهم..

.. ربما إن لم تسمع بها يوماً تكون قد مررت بها في سفرات..!.

- «صدمنا بجدار..».

- «وش جداره..؟..».

- «صدمنا بجدار يعني خلاص..!».

.. وعاد صوت الترمبون يأخذ مكانه في شفاه وجيعة على سعة من غبار يعب من وجهي الجبين والأجفان، ومن شحيح غيث يصطك بشفاهي وينسل نداها..

«انا قول قليل

منو قليل..!

شعور ثقيل..

إذا هالحب خلص..!

خلص خلص

يعني: خلص..!».

3

- «J'ai peur monsieur Mèro!»
- «Quoi?. Nous somme avec vous».
- «Mais..»
- «C'est; Quand on veut on peut».

.. يهزني صدى حواري والمسيو ميرو كل لحظة حولي. أريد أن أخبر به كل أحد.

.. أردت شكر ندى وتبليغها بالخبر على أنها ستزفر، وتقول: «وِهْ، بعدما تعبّتني..»، لكن إبراهيم كان بوجهي ذلك الصباح بعد أول ما رآني سألني..

ـ «أفطرت؟».

ـ «يا ياللا نفطر سوا..»

ـ «يا اللا..».

.. ارتباكه يكاد يتشقق أطيافاً من انقباض أسفل وجهه. يحبس في نفسه شيئاً. حاسب الموظف الفلبيني بسرعة وشد بإبهامه وسبابته آخر طرف كمّ ثوبي ليختار أقرب مقعد كأنما يقربني منه وأنا أتفلت. لم أحاول أن أسأله مخافة انفعاله

وتركه لحين ما يهدأ. لم يكن في وارد ذهني أن أسبقه، لكنني سألته بعفوية تطاله بعد أن ألمح بأن اليوم السابع هذا هو آخر أيام المعرض..

ـ «كيف أشوفك..؟»

.. ناظرني متراجعاً ماء الارتباك لندى ابتسامة اغتبطت به وخجلت منها. كأنما أشفيت نفسي بأنني بادرت عليه لأنني: «مبسوط» هذا اليوم، منذ البارحة طمأنة المسيو ميرو قبولهم تبني مشروع دراستي في فرنسا عبر المؤسسة، وإذا كان هذا آخر يوم عرض للشركة التي يدير أمر تسويقها إبراهيم ربما تكون ـ أيضاً ـ آخر أيامي هنا، ولم أخبره حينها.

4

.. إذا كانت أي دراما تنتهي بفجيعة، فلا بد من الاطمئنان بعدها إلى تعلمنا توجيه عناصر الحياة نفسها إنما بطريقة أخرى.

.. «أن نأمل، يعني أن نكذِّب المستقبل». كأنما الزمن يثبت حقيقة مقولة سيوران الروماني الذي تحول فيلسوفاً في مساءات وحشة باريس بعد سأم بودلير منها أو فيها، إن في حال بقائي آملاً لأحافظ على وفاء مهترىء لعلاقتي بناصر، كذَّبته الأيام المقبلات..

.. الآن، عندما أخمدت هذه العاصفة الحمقاء بغبارها عبقت روحي بأنفاس حرَّة جعلتني أعرف معنى احترام ذاتي بعد اكتشافها.

.. الآن، أمشي كأنما هو المشي جديد عليّ وبسيط. أفكر بعقل لم يعد في حالته السابقة عقل يفخر بزوايا متعددة ومرنة، إنه حر ونشيط..

.. أطالع الناس في المستشفى على مشقة انفصال شعوري

يزداد ويتعزز سوى أنني ممتلىء بأمر يبثق هذه الروح. . ،
والتفت برهة لأتابع الصفير الهادر الذي فاجأني من جانبي. .

ـ «كيف الحال. . ؟»

ـ «Hi» سميرة. . !»

ـ حيث أسلم عليك. . خلاص بنتقل للشرقية. . »

. . حيوية دافقة في عينيها وجسدها كله. كأنما ستارة من ضباب تبددت لأن العقل أضاء عتماته، وتلبس نظارة جميلة بزوايا حادة على طرفيها العلويين بلون أحمر، تأنق حاجباها كثيراً عندما أرادت أن تومىء بتحيات لبعض الموظفين والموظفات من هنا وهناك بين من يمرون، وآخرون نهضوا من مقاعدهم توقفوا عندنا وربما يظنون أن شيئاً جمعنا كان الصلة القديمة لجدين عتيقين للبشر، لكنني أنا وإياها ضحكنا كثيراً عندما قالت عائشة بسخريتها الفظيعة ومشت: «لا تنسوا تعزموني للعرس. . ». .

ـ «هذا اللي شاغل مخها. . ».

ـ «على راحتها اتركيها خلاص مشت. . »

ـ «لو حصل لها تزوجت على اللي عندها. . »

. . لم أستطع أن أكتم ضحكتي وأتخوف لئلا تكون قريبة من منعطف الباب. نهضت بروحي لأرى فرأيت ابراهيم

يتطلع من بعيد ثم لوَّح..، وقال بحركة لسان كشفتها شفتان تتواطئان: «طالع..؟»، فأومأت بعد قليل وذهب..

.. سألتني عمَّن كنت أحاكيه، وحاولت إخفاء ذلك باطمئناني ألا تكون عائشة سمعتنا، لكنها استدرجتني: «إذا ما ودك بكيفك..!»، تكلمت بصراحة لها أنه شخص تعرفت إليه هنا ضمن العروض التسويقية التي تقام في النادي الاجتماعي، وقالت: «زاد متوقعة لو كان من المستشفى ما عطيته وجه..».

.. اقتسمنا كوكي/ Cocky كان معي، وقالت: «أشوى انّه في المستشفى مسموح نتقابل لو كنا موظفين في مكان ثاني ما حصل نتقابل..»، قلت: «يمكن ما كان فيه أصلاً موظفات..»..

* * *

.. تلك نقطة معطوبة في موقعها وظرفها، لكن كما لو كانت هي عبور ليس له واد ولا فجاج. ربما لحظة للقمم أن تتذكر كيفية صعودها منذ الزمان الغابر، والعابرة فيه كل التواريخ المنسية على تجاعيد الهضاب والجبال..

.. اذهبي، يا سميرة.. اذهبي..!.

.. هناك البحر سوف يندي بأمواجه خطوط إزميلك، فأعيدي صياغة أحواله..، واذكري للبحر طقوس النساء

المنتظرات الواهبات نسلهن لعين تغدو الرمال أهدابها، وانقشي منارات لمواطىء أقدام النساء حاملات الهيب(*) المقدس لينعم البحر بلفح جحيم رعب الفقدان المالىء صدورهن لمأخوذين بمحاره.. سوف يرفعونه إليهن ليضيئوا: «مَصَابِيحُ رُهْبانٍ تُشَبّ لِقُفّال» على ذكر الضّليل امرىء القيس.

.. إن كل الوجوم الذي اتشحها في الفترة الأخيرة عرفت لماذا الآن زال، وأدركت ما الذي هذّب طريقها من عروجات لم يعد يجدي أن يكون موشوماً بها..

.. عرفت أن الإنسانة ـ الفنانة اذا لم تهمل مصدراً في الضوء فيها لا تعرف المحال..

.. إنها أفرحتني أكثر عندما كشفت أنها تعد لمعرض منحوتاتها خلال الشهرين القادمين في الخبر وتذكرني ألا أنسى الحضور وأن أكتب عنها وصديقتها الفنانة البحرينية فاتن التي سوف تشاركها المعرض.

.. وعدتها بفرح لا يزول أن آتي بكل إحساسي، وأخبرتها بما حدث معي ومؤسسة الفن الراقي، فجلست وهي تغمرها حالة شرود غابت وعادت منها سريعاً: «يا سلام، يا تركي..».

(*) الهيب: قضيب من حديد يلهب بالنار ويكوى به البحر.

.. تركتني لتكمل توديعها لبعض الزميلات.. ، ورحت أغط في تخيُّل عرض منحوتاتها..

.. أفكر في الخامات، الأشكال.. ، الهياكل.. ، ملامحها.. ومواضيعها..

.. أوه.. ، يا سميرة..!.

.. بدا كل شيء يتحرك يعلن أن مستقبلاً صار الآن هو الحاضر ودفع في كبد الخيال مستقبلاً آخر..

.. عدت أموج أوراق جريدتي.. ، وتستبيح نكهة الخردل سطح لساني.

.. لممت مهملاتي لسلّتها، وحين مشيت صوب الحمام لأغسل يدي لمحت في الخارج شخصاً أشار إليّ من بعيد، ضممت أصابع يدي اليمنى موجهاً إياها إلى الأعلى بمعنى انتظر!.

.. طالعت المرآة، بل إنني أطالعني..؟.

.. هذه المرآة تلقف ملامح طموحي.

.. هذا الأمل مفعم بروحي يجوس جباه الحالمين مثلي كما زهرة برّية تشد بأنفاسها مسافة حدسي.

.. خرجت وتوجهت إليه. ركبت السيارة، وسلمت حاولت أن أطاول عفويته منذ أول لقاء له بي.. أريد أن

أجترح البساطة، فلم أسأله إلى أين..؟، ولم يخطر ببالي أي شيء. طالعني بعمق جذاب..

ـ «أنا بانتظرك.. إلين ترجع..».

.. ضممت كف يده اليسرى بيدي، رفعها وأسكنها شفتيه، ثم نظر إليّ بالعيون نفسها وباشر طريقه يؤكد لي..

ـ «لا يهمك أحد.. أنا بكون جنبك..».

.. أعدت هذه المرة النظر إلى جانب وجهه وشعيرات لحيته التي تنز والشعور الحنون الذي يكتنز في طرف عينه دون ارتباك بل كنت واثقاً. ربما بكلامه أو كلام المسيو ميرو أو أنني لم أحرم نفسي من النظر إلى الجزء المليء من الكأس، قبل أن تكدره الصحراء التي، وإن غاب لها وجه تحت بحار من الإسفلت أو الإسمنت، لن تدرأهما من أنفاسها الحارقة والمكبوتة..

* * *

.. هذه الصحراء زاخرة بنا..، فهي علامة الهجرة وشرف التيه.

.. صحراء نجد.. (قلب الجزيرة) كما أسماها فيلبي رحالة لم يكتف بمهمة واحدة فيها، فهو الذي مسح بيديه على جسد الجزيرة العربية، لكن المسوح لم يفد معها، فلما اشتد ساعداها لفظته مثلما لفظت سواه من أبنائها ابن لعبون والقصيمي..

.. سجادة رمل سحرية تحمل حكايات حفظتها لجة الصمم في الحجر التي تحلم بشجر تفاح من السقف السماوي أن تسقط، لكن الإنسان يمتلك غواية الشجر، وليس الرمل سوى ذاكرة حجر أعمى يهجس بالتفاحة والسجادة كل حين من زمن السرد الذي كتب عليه أن يشهده ولا يبلغه لصممه وعماه.

.. إن الصحراء تحمل في عماه وصممها هديراً من الصوت الذي تُحرم منه أذن لتسمع جنوناً من الضوء الذي تحرم منه عين لترى. لكنها تبقى.

.. تبقى صحراء تحرس بشراً ناموسهم العزلة وسقفهم السماء. لغة الطقوس بين حدَّي القوافل والنجوم، ومن لم ترسم الرمال حظوظ مستقبله ستدفعها بالغبار لئلا تبقى له مواطىء فيها..

.. يا لها من صحراء تنتهي بتفاحة إلى البحر وأخرى إلى القبر!.

.. أفق الصحراء كائن لا يكون كله. إنما ينحر آياته كما لو طال فيض شبق على مائدة الأحلام يمشقها خيط سموم الرياح التي تنجّم بنا في كل واد..، ولا تدرك لعودة نازح من سبيل.

خريف 2002 ـ ربيع 2003 ـ صيف 2005

صوتٌ ليسَ إلّا..

«أعمى هو هذا العالم.
قلائل فقط، هم الذين يملكون نفاذ البصيرة.
قلائل، من يبلغون عوالم الغبطة كالطيور الناجية من الشَّرَك»
العالم/ 13
آبدها

إحالات

ـ جريدة الحياة، العدد: 14488، 19 تشرين الثاني ـ نوفمبر 2002.

ـ بودلير ناقداً فنياً، د. زينات بيطار، دار الفارابي ـ 1993.

ـ حوار مع متمردي التراث، عصام محفوظ، رياض الريس للكتب والنشر ـ 2000.

ـ جولة في أقاليم اللغة والأساطير، علي الشوك، دار المدى ـ 1999، ط. 2.

ـ نص من «حالة حصار» محمود درويش. رياض الريس للكتب والنشر، 2002، ط2.

ـ أغنية: «شوها الإيام..؟»، من شريط: «أنا مش كافر» لزياد الرحباني، ريلاكس ـ إن ـ 1989.

ـ أغنية: «CARUSO»، لـ: LUCIO DALLA، الترجمة الإنجليزية في أسطوانة: CRAZY، لـ JULIO IGLESIAS، SONY ـ 1994.

- الجحيم: النشيد الأول، ص. 137، الكوميديا الإلّهية، دانتي ألغييري، ترجمة: كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ومنظمة اليونسكو ـ 2002.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ج/ 3&6، منشورات الشريف الرضي.
- إرم ذات العماد/ من مكة إلى أورشليم: البحث عن الجنة، فاضل الربيعي، رياض الريس للكتب والنشر ـ 2000.
- الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، فريد الزاهي، أفريقيا الشرق ـ 1999.
- المقطع التاسع: «إن المرأة الخاطئة. .»، أسطوانة «لقد تم/ تراتيل بيزنطية من وحي الآلام» جوقة الرهبانية الباسيلية الشويرية ـ 2000.
- نص: الأرجوان، ص: 454 ـ 455، مجموعة: «شظايا؛ 1981» لقاسم حداد، الأعمال الشعرية، ج/ 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ 2000.
- أغنية: «وعد»، من شريط: «أنا العاشق/ 10» لطلال مداح، فنون الجزيرة.

- Cncise dictionry of music, Michael Kennedy, Oxford-1996.

- أغنية: «خلص»، من شريط «هدوء نسبي» لزياد الرحباني، ريلاكس ـ إن ـ 1991.

- الجزيرة العربية/ موطن العرب ومهد الإسلام/ ج. 1، لمصطفى مراد الدباغ، دار الطليعة ـ 1963.
- سيرك العزلة، سيوران، ت: آدم فتحي، مجلة: عيون/ 12، 2001.
- أحمد البشر الرومي/ قراءة في أوراقه الخاصة، د. يعقوب يوسف الغنيم، مركز البحوث والدراسات الكويتية ـ 1997.
- معجم: الأريج من كلام أهل الجزيرة والخليج، إعداد: خليفة الإسماعيل، نشر خاص ـ 1999.
- الحكمة البوذية: حياة ألبدها ـ تعاليمه ـ سيل الحق، حلقة الدراسات الهندية، نوفل ـ 1997.

المحتويات

للتواصل

1 ـ جموع أقنعة (شعر)
دار الكنوز الأدبية ـ 2002.
2 ـ هشيم (شعر)
دار النهار ـ 2003.
3 ـ الصوت والمعنى (دراسات)
دار الفارابي ـ 2003.
4 ـ مهلة الفزع (شعر)
مؤسسة الانتشار العربي ـ 2005.
5 ـ سحارة الخليج (مقدمة ودراسات)
دار الفارابي ـ 2006.
6 ـ تمائم (شعر)
مؤسسة الانتشار العربي ـ 2007

ص. ب: 27635
الرياض: 11427
Ahmad_alwasel@hotmail. com

.. هذه الرواية تكشف تملكاً لأسلوب سردي مُوَحٍ وأخّاذ. لا تعود الحكاية في ازدواجها مجرد حوادث وشخصيات، بل هي وجوه من الحياة يحركه ذلك الصراع الأبدي بين البشر ومصائرهم على هذه الأرض التي لا زالت تنكر إفلاسها حيث تتّجه إلى السماء!

هذه الرواية حائزة على جائزة مؤسسة الصدى للصحافة والنشر 2005/2006 بالإمارات العربية المتحدة

أحمد الواصل، شاعر وناقد في الأدب والموسيقى. حائز على جائزة الشعر العربي 2005 . من جريدة الرياض. بالمملكة العربية السعودية.

صدرت له مجموعات شعرية ودراسات ثقافية. ويُعد رواية أخرى.